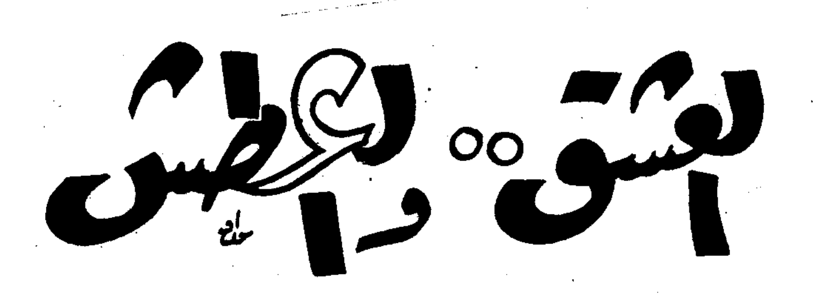
طه وادي



الناشر
مكتبة مصر
٣ شارع كامل صدقي - الفجالة

دار مصر للطباعة
سعيد جودة السحار وشركاه

طه وادى

مجموعة قصصية

١٩٩٣

الطبعة الأولى

أَبُّوخْ.. يا.. أَبُّوخْ

تصفيق .. غناء .. زغردة .. هيصة .. كبار وصغار .. نساء مع رجال . كل ذلك أضفى جوا من البهجة فى ليلة من ليالى الصيف الحارة . تجمع كثير من أهل القرية ، يحتفلون بعُرس حمدى وفادية .. فى ليلة غاب فيها القمر . ليالى الريف الجميلة .. هى ليالى القمر . لكن الناس ــ كالعادة ــ يُشغلون بقمر الأرض عن قمر السماء . فادية ــ فى ثوبها الأبيض ــ حورية بضة . غزال .. يختال .. فى موكب كرنفال . عروس النيل .. الكل حولها مُصفِّق ومُزغرِد . تبتسم ــ أحيانا ــ لأترابها ، يقرصنها فى الركبة ، وهن متشاغلات بإمساك الطرحة أو ذيل الرداء الأبيض . أحلام عذارى .. وحيارى .. فى ليالٍ ، غاب فيها القمر . ليلة الفرح ليلة العمر . عود الكبريت لا يشتعل إلا مرة واحدة .. مرة واحدة .. واحدة فقط . أطلقتْ ناعسة أم العريس زغرودة مجلجلة ، أثارت الحماسة فى الأكف والألسنة والقلوب . اشتد التصفيق ، وعلت الزغاريد . منيرة الماشطة ترقب فادية عن قرب ، وتصلح زينتها من آن لآخر ، فهى الوصيفة الخاصة لكل عروس فى القرية ، ولاتنتهى مهمتها إلا بعد أن يدخل الطائر العش . وقد تعود ــ أحيانا ــ بمنديل من

الشاش الأبيض ، عليه نِقاطٌ من المسك ـــ المسك بعضُ دم الغزال .
أخذتْ منيرة اليوم من أم حمدى خمسين جنيها ، وزوَّقتها على تلك الصورة البديعة . بدأتْ تغنِّى والنساء خلفها يرددن :

مـا احْلـىَ ليـالى الفـرحْ ‏ ‏ ‏ ‏ ‏ لا مْـلا وَكيِّـل بالقَـدحْ
مـا احلى العـروسة وقعـدتها ‏ ‏ ‏ ‏ ‏ والـورد مزيِّـن قُصتها
تَعـال يـا عريسنـا وحدِّتْها ‏ ‏ ‏ ‏ ‏ تفـرحْ وقلـبك يـنشرحْ

مشى حمدى فى الموكب فرحان مختالا . فى الجلباب الأبيض والطاقية الشبيكة والكوفية النايلون ـــ أحس أنه من سلالة عنترة أو أبى زيد . شرَّق وغرَّبَ ، تألَّم وتعلَّم .. وأنزل الحُلم من سماء الخيال إلى أرض الواقع . لايدرى .. لايدرى منذ كم سنة أحب فادية ؟! جَمع بينهما اليُتم والفقرُ والجدار المشترك . حين رأى فادية ـــ بقلبه ـــ عرف معنى الفقر والذل . مات أبوه ـــ وهو صغير ـــ لم يترك شيئا .. و لم يعلمه عملا . قروش الترحيلة تكاد لاتكفى لإطعام الأسرة . أغراه الولد عوض المزيِّن بالرحلة والسفر . سيطرت الفكرة على فؤاده ، ورسمتْ إطار الحلم . السفر ليس اغترابا وعذابا فحسب ، إنه ـــ أيضا ـــ طريق تحقيق الآمال المستحيلة . فى البدء ذُعرت فادية ورفضت . لن تقدر على أشواق الحب وأوجاع القلب . سرعان ما اقتنعتْ ووافقتْ . الوحيدة التى لم تغيِّر رأيها مطلقًا .. الأم . حين رأته مُصرًا ، كتمتْ همها فى قلبها . كانت

تتحاشى أن تقع فى عينيْه عيناها ، حتى وهما صامتيْن . رحل حمدى — فيمن رحل — إلى العراق ، فهى لا تطلب تأشيرة أو كفيلا أو مؤهلا . كلها بلاد العرب والمسلمين .. هكذا يقولون .. !! لم يكن يُتقن حرفة معينة . من يملك عقلا ويدا ، يستطيع أن يفعل أى شىء .. بل كل شىء . جرب العمل حمّالا ، ونجارا ، وحدادا ، وبناءً . لم يحاول أن يعمل مزارعا ، فذلك هو ما كان قادرا على النجاح فيه . من يزرع فى غير أرضه ، يُربّ فى غير ولده . ارتبط بمجموعة من أبناء القرية والقرى المجاورة ، يزاولون أعمال البناء ، ويتحركون أسرة واحدة . فى بغداد .. استقرّ بهم المطاف بعد رحلة طويلة فى كثير من مدن الجنوب والشمال.أقاموا فى زقاق شعبى فى حّى المتنبى . تعرف على صديق عراق اسمه عبد الإلٰه . وحّد بينهما الفقرُ والقَهر . شهابُ الدين ليس أحسنَ من أخيه .. وسعد ليس أفضلَ من سعيد . كلنا عرب .. ومسلمون .. والحمد لله الذى ...!! قدم له عصا النرجيلة : لم أنت حزين ؟ لم يرد حمدى ، وتشاغل بالنرجيلة . أخذ يدخِّن .. ويدخن .. ويدخن ، حتى غطّى الدخانُ وجهه . بدا وسط الدخان جسدا بلا رأس . أخذ عبد الإلٰه يصبُّ الشاى فى الاستكانة : أكيد تفكر فى العروسة ياقلبى . دخن .. دخن . لا تفكر فى شىء إلا إذا جمعت المهر وثمن الدار . لابد أن تعرف .. آكوفلس .. آكو عرس ، ماكو فلس .. ماكو

عرس . هذه الأمثولة كانت مصدر السخرية والضحك ، والحزن والفرح فى آنٍ واحد . كلنا فى الهمّ عرب . صحيح يا عبد الإله : آكو فلس .. آكو عرس .. ماكو فلس .. ماكو عرس . تذكر الكوفة .. البصرة .. الموصل .. بغداد .. دجلة .. الفـرات .. فندق الرشيد .. شارع أبى نواس .. حّى المتنبى . أحس غُصةً أليمة حين تذكر العراق .. وما وصل إليه العراق . ألف حسرة وحسرة عليك يا عراق .. وألف شوق وشوق إليك يا عبد الإله . جذبته فادية من عالمٍ ، لا تدرى موقعه فى نفسه . فى أذنه ابتسمتْ : كيف تسرح فى ليلة الفرح يـ .. يا .. يا حبيبى ؟! ماذا تصنع ليلة واحدة فرح فى عمر كله خراب .. يا .. يا حبيبتى ؟! حاول أن يرحل عن ديار الغربة . رفَّتْ عينُه اليسرى . ألحَّتْ عليه أصداءُ أغنية قديمة .. كان يغنِّيها ـــ وهو طفل ـــ مع أمثاله : أبوح يا أبوح .. كبش العرب مدبوح .. وامه وراه بتنُوح .. بتقول يا ولدى .. يا اعزّ من كبدى .. يا طالع الشجـرة .. هـات لى معـاك بقـرة .. تحلب وتسقينى .. بالمعلقـة الصينـى .. والمعلقـة انـكسرتْ .. يـامين يرسِّينى . اقترب الموكبُ من القنطرة ، التى تفصل بين الـدور القـديمة .. والـدور الجديدة ـــ دور المسافريـن ، المهاجريـن ، العائدين .. !! حمدى ـــ الله يحرسه ويطول عمره ـــ اشتـرى الأرض .. وبنى الدار ، بناها بنفسه فى بحرى البلدى . تذكرت

ناعسة فى تلك اللحظة الحلوة المُرة زوجَها الراحل . ليته كان على قيد الحياة ، حتى يفرح معها بابنهما البكرى . أكيد هو الليلة سعيد فى قبره . ولدك صار رجلا ـــ يا أحمد ـــ له دار جديدة فى بحرى البلد. عرض عليها حمدى أن تبيع الدار القديمة ، وتأتى هى وإخوته ليسكنوا معه . رفضتْ غاضبة : لن أبيع دار جدك .. وذكرى أبيك يا ولدى .. الذى يبيع الدار لا يخشى العار . !! طالما أنا على قيد الحياة لن أخرج من هنا . وإذا متُّ فافعل أنت وإخوتك ما تشاءون . إياك أن تخاطبنى فى هذا الموضوع مرة أخرى . رغم حبها لولدها .. إلا أنها لم تكن مقتنعة بما فعل ، لأنه رفض أن يُعيد بناءَ الدار القديمة . أحست أفكارا حزينة تنبتُ من الجهات الأربع . لكن هذه ليلة حمدى يا ناعسة . حمدى أول الفرح ونهاية الحزن . أطلقت زغرودة عالية ، حتى تطرد الهواجس . خلعت طرحتها السوداء ، لفتها حول الخصر الضامر خصرها . بدأتْ ترقص وتتمايل . أول مرة ترقص .. أول مرة تفقد وقارها منذ وفاة زوجها أحمد أبو أحمد . من أجل حمدى .. وعُرس حمدى يهون الكثير . شاركتها منيرة الرقص .. والغناء :

يـــا مهلبيَّـــة يـــا .. يـــا مهلبيـــة يــــا	يا مهلبية يا
أنـــا خـــدت الـــوَاد دَا غِيَّـــة يــــا	يا مهلبية يا
عشان عـــاوج الطاقِيَّـــة يــــا	يا مهلبية يا
شوف صورتُـــه فى عينيَّـــة يــــا	يا مهلبية يا

دا حـــبك غـــالى عليَّـــه يـــا يا مهلبية يا

بعض التلاميذ والطلبة وقفوا عند القنطرة ، يرقبون الموكبَ عن قرب . لا يصفِّقوُن .. لا يغنون .. فقط يرقبون .. وينتظرون . صاروا يشكلون حالة خاصة . إنهم ليسوا داخل الزفة أو خارجها . يقول عليهم حمدى نفسه : أفندية .. لا تعرف لهم موقفا . أفندية يا .. يا مهلبية يا .. !! تبادلت فادية مع رجلها نظرة شوق ومودة . تُرى من يكون أكثر سعادةً بليلة الفرح .. العريس أم العروس ؟! امتزجْت حرارة الجو بالغُبار المتصاعد من الأرض . الزفة تشكل هالة صغيرة .. صغيرة من النور ـــ وسط عالم كله ظلام .. ظلام ، عالم غاب عنه القمر . !! فراشات رقيقة تلتف حول أضواء الكلوبات ، تسعى نحو النور ، فتحرقها النار . لكن .. فراشات أخرى تأتى من بعيد ، ثم تعيد الكرة من جديد . بين النور والنار يحترقُ عابـدُ الضوء . الموكب يتحرك فى بُطء .. وصخب . ليلة الفرح ـــ مثل ليلة المولد ـــ كل فرد له أحلام خاصة . الصغير يتمنَّى أن يكبر .. وأن .. ومن سبق له الزواج يأمل أن يتذوق نوعا آخر من الفاكهة ، حتى العجوز ـــ وهو فاقدٌ للقدرة ، مالكٌ للرغبة ـــ يتمنى أن تُزفّ له صبية .. صبية يا .. يا مهلبية يا .. يا أفندية يا . قُبيْل أن يصل الموكبُ إلى القنطرة ، بدأ الطلبة والتلاميذ يحيونه بطريقتهم . حملوا واحدًا منهم . أنشأ يهتف ـــ كأنه فى مظاهرة ـــ وهم يصيحون

خلفه : يحيا العريس .. يحيا حبايب العريس .. يحيا الزواج .. تسقط العزوبية .. تسقط .. تسقط .. تسقط . لكن العريس .. لم يلتفت إليهم . حاول أن يبدو مشغولاً بعرسه وعروسه . خرج المعلم سليم أبو سلامة الجزار من داره ، يحمل إناءً به شراب ، وزوجته — خلفه — تحمل بعض الأكواب . أصرَّ أن يسقى العـروسين .. والحبايب الشربات بنفسه . حبيب الأب حبيب الابن . انشغل الجميع بالشربات ، عسى أن تطفئ برودةُ الأكواب الحمراء حرارة ليلة رطبة مظلمة . بعد الانتهاء من الشرب بدأت منيرة تمارسُ مهمتها فى إعادة النظام إلى الموكب.زغرودة يا حبايب .. صفقة يا بنات .. شُوبَشْ يا أولاد الحلال .. عقبال عندكم . أخذ الموكب يستـرد حركته وانتظامه ، ويعبر القنطرة . الدار الجديدة صارْت على بُعد خطوات معدودات . الجميع مشغولون بموكب العرس . أم حمدى حين وضعتْ قدميْها على القنطرة ، وبدتْ لها الدار الجديدة — أحست بصداع فى الرأس ، واضطراب فى القلب . تأخرت بعيدا عن الزفة .. وعن دائرة الضوء .. فيما بين الضوء والظلام ، واليقظة والدوخة ، تخيلت زوجها جالسا فى الدار القديمة : تعالى يا ناعسة .. أنا فى انتظارك .. لا تتأخرى . همت بأن تجرى حتى تلحق به . مدَّ ذراعيْه .. يريد أن يحتضنها . اهتزتْ .. ثم تمايلتْ .. فكادتْ تسقط على أرض القنطرة ، التى تفصل بين الدورِ القديمة والجديدة . إحدى

صديقاتها كانت تتأملها من قريب ، تلقفتها قبيل أن تقع : مالك يا حبيبتى .. يبدو أن الفرحة لم تسعك . ألف سلامة يا أم حمدى . توقف الموكب فجأة على صوت شهقة عالية من الأم ، تبعتْها صرخةٌ حادة من العجوز ، التى أسندتها على الصدر . صاحت منيرة : كوب ماء يا أولاد الحلال . لكن .. الجسد المنهك لم يقْبل ماءً أو هواءً . عند منتصف القنطرة لبَّتْ ناعسة نداءَ الراحل العزيز . تحول كرنفال الفرح إلى موكب حزن . انقلبت الزفة إلى جنازة . بدلاً من أن يدخل حمدى — الدار الجديدة — حاملاً عروسه الجميلة ، دخلها حاملا جثةَ أمه المسكينة . تذكر فى تلك اللحظة المدمرة .. أباه الذى مات وهو صغير .. فقير ، وشبابه الذى اغتالته ليالى الغربة ، وأحزان أمه — يوم سافر .. ويوم عاد .. ويوم بنى الدار الجديدة . أمى .. يا أمى هل أنت التى أضعتنى ، أم أنا .. أنا الذى أضعتك ، لماذا تركت الوطن ، وسكنت الكفن ، لمَ .. لِمَ اخترتِ يوم الفرح موعدًا للرحيل .؟! مضى حاملا الجسد المسجَّى فى يوم الفرح المأتم . فادية بملابسها البيضاء .. تسير خلفه باكية ، وأبناء القرية يمشون فى الموكب صامتين ، منكسى رؤوسهم ، ذاهلةً أفئدتهم . !! لم يقدر ما كان .. وما يكون أن يُنسيه أصداء الأغنية القديمة : أبوح يا أبوح .. كبش العرب مدبوح .. وامه وراه

بتنوح .. بتقول يا ولدى .. يا اعز من كبدى .. يا طالع الشجرة ..
هات لى معاك بقرة .. تحلب وتسقينى .. بالمعلقة الصينى .. والمعلقة
انكسرت .. يامين يرسّينى .. يا .. يا يا..؟[1]

---

(١) كتبت فى مدينة الرياض ـ المملكة العربية السعودية يوم الجمعة ١٨ شعبان ١٤١٢ هـ = ٢١ فبراير ١٩٩٢ .
ـ نشرت فى جريدة « مايو » ـ القاهرة العدد ٩٧٧ فى ١١ ـ ٥ ـ ١٩٩٢ .

ال وَلد .. و .. ال بَ لد

(العشق والعطش)

بعد يومين وثلاث ليال من وفاة عثمان بن حامد البدراوى .. أو قتله ــ الله وحده يعلم ــ جاء شيخ البلد ، ومعه بعض الرجال . طرق الباب : يارب يا ساتر . سلموا على الأب ، وعلامات الحزن ، تبدو على الدار ومن فيها . مدّ يده ، وأخرج منديلا أبيض متّسخا . حاول ــ بصعوبة ــ أن يتكلم : هذا المبلغ جمعناه لك من العمدة وأهل البلد . العمدة ــ الله يستره ويطول عمره ــ حين سمع الخبر ، تأثر جدا ، وحزن .. أى والله ، وطلب منى أن أنوب عنه فى العزاء ــ نظر إلى الأرض ، لأنه لم يكن قادرا على رؤية وجه الأب المسكين ــ وفى تقديم هذا المبلغ ، حتى تدبّر حالك . انتفض الأب كأنما لدغته حية . رد اليد ، التى تحمل المنديل فى إصرار . قال وعيناه تفيضان بالدمع : لا .. لن آخذ شيئا . قل للعمدة .. ولأهل البلد .. إن هناك أمورًا لا تُباع .. ولا تُشترى .. ولا تُعوّض !! أهل القرية يختلفون .. ويختصمون .. ويتعاركون ، لكن الموت ــ لا يزال ــ هو الحدث الوحيد ، الذى يجمع بينهم . الوقت عصرا ، وحرارة يوليو تلهب الوجوه الحزينة . صاح عبد المعطى اللحّاد بعد أن فرغ من أداء مهمته : يا ناس .. يا أهالى البلد ، شكر الله

سعيكم ، وعظّم أجركم . لا مأتم .. ولا عزاء .. مصروفة من عند الجبانة . الفاتحة على روح المرحوم ، وعلى روح أمواتنا وأموات المسلمين . تعجّب أهل القرية من الرجل الذى لم يقم مأتما لولده البكر ، لأنهم رأوا أن المصيبة مصيبتهم بقدر ما هى مصيبة أسرته . تقطعت القلوب حسرات ، حين أصرّ الأب على أن يحمل النعش . البعض رآه يبكى بكاء حارا ، والبعض الآخر رأى عينيْه وقد تجمدت فيهما الدموع ، وسار لا يرى شيئا .. أو يحس حركة مما حوله . أما وجهه فكان فى كل لحظة على حالة . أثقلُ حملٍ فى الوجود .. أنْ يحمل إنسانٌ جثةَ من يحب .. !! حاول بعض العائدين معه من الجبانة أن يأخذوا بيديْه ، لكنه رفض قائلا : حسبى الله ونعم الوكيل . أحسّ — عندما بدأ يسير فى القرية — أن الشوارع صارت ضيقة أكثر من اللازم . الوحيد الذى تجرأ وأمسك يده ، هو الشيخ رمضان — مجذوب القرية : عثمان فى الجنة ونعيمها ياعم حامد .. قلْ يا رب .. قل يا رب .. !! حين جلس أمام الدار ومعه بعض المقربين سمعوا النواح والندب من الأم وبعض نساء القرية . الندابة تنوح بصوت مشروخ ، والنساء يرددن خلفها :

ياريتْ تِيجى ع الباب واشوف طُولكْ
واسلّم عليك يا ابنى يا اللى اتخفَى زُولكْ
ياريت تِيجى يا ابنى قلبى عليك دايِبْ

اكمـــنْ حِسّك يــا ابنـــى عنّنــا غـــايِبْ

يــا حبيبـى ى ى .. يــا مصيبتـــى ى ى ..

دخل عليهن الشيخ عمران ، وهو يشير بيد ، تهتز فيها مسبحة سوداء : الصبر يا أم عثمان ، لأن رسولنا يقول : « ليس منّا من لطم الخدود ، وشقَّ الجيوب ، ودعا بدعوى الجاهلية » استغفرى الله .. وادعى له .. حتى يرحمه الله ، لأن الميت يُعذّب ببكاء أهله عليه . ردتْ عجوز جافة العود : من حرقتها يا شيخ .. غصبًا عنها .. ربنا يصبرها . سكتن برهة .. وقبل أن يختفى أثره عاد النواح أقوى مما كان . قال الشيخ للوالد المحزون : قم نذهب إلى المسجد لنصلى المغرب ، قم يا أخى ربنا يصبّرك . مشى بجواره صامتا ، لا يرى ، لا يسمع ، لا يتكلم ، لا يدرى من أمره شيئا . قابلهما رمضان المجذوب ، وقد ركب عصاه مثل الحصان . كان يصدر صوتا أقرب إلى الهمهمة . لا يدرى أحد .. هل يصيح أو ينوح .. يغنّى أو يبكى . ؟! الشيخ رمضان له حالات وكرامات ، لا أحد يسأله عما يفعل . سار فى اتجاه مخالف ، كأنما يستجيب لنداءٍ لا يعـرف مصدره .!

لم يكن من السهل أن يعرف أحدٌ هل مات عثمان أو قتل .. ولا ماذا حدث .. ولا كيف حدث ما حدث .؟! حين سأل الطبيب أباه قبل أن يصرِّح بدفن الجثة ، تمتم فى صبر وإيمان : قضاء وقدر .. وعد ومكتوب .. إنا لله ..!!! كان من عـادة عثمان أن يتأخـر فى الحقـل ، وهـو أسبـق إخوتـه ذهابـا إليـه ، وآخرهـم عـودة منـه . فتـى شهـم .. أشد حيـاء مـن العـذراء .. وأجـرأ

قلبا من الأسد . يقول الحق حتى لو كان على أبيه . هناك أشخاص يعدهم الموت لكى يختارهم.ابن موت بحق وحقيق . تأخر عثمان فى الليلة المشئومة على غير العادة . أمسى فؤاد الأم فارغا ، وإن كادت تُبدى بعض ما أحسّتْ . رفّتْ عينها اليسرى ، فقالت وهى تبصق فى طوق جلبابها : اللهم اجعله خيرا . ما كادت تتم الدعاء إلا وقد أتى محمولاً على الحمار ، كأنه حمل برسيم . صاحتْ .. وناحتْ ..!! امتلأت الدار .. بالكبار والصغار .. من الأقارب والأباعد . المفاجاة أذهلت الجميع . الناس سكارى .. وماهم بسكارى ..!! كيف يعود فى المساء ميتًا من خرج فى الصباح مُعافى ..؟! اللهم إنا لانسألك ردالقضاء ، ولكن نسألك اللطف فيه — هذه هى الجملة الوحيدة التى طفق الأب المحزون ، يرددها فى ذهول . لم يُسمح له .. أولأمه .. أو لأحد من إخوته .. أن يروا جثة العزيز الراحل . عجوز من نساء الأسرة تملك قلبا جعله الزمان حجرا ، حاولت أن تغمض العينين الجاحظتين ، وتغلق الفم المفتوح . حين عجزت شدت ملاءة بيضاء وغطت الجثة متمتمة : أشهد أن لا إله إلا الله وأن محمدا رسول الله ، اللهم اجعلنا أمواتا .. أولاد أموات . أغلقت الباب.وضعت المفتاح فى صدرها قائلة : ربنا يصبّر قلب أمك عليك .. يا حبيبى ى ى ..!! تجمعت القرية أمام دار حامد البدراوى . لا أحد يقول شيئا .. يعرف شيئا .. يفهم شيئا ..

لا أحد ينظر فى عين الآخر . كل شخص يفكر وحده .. يكلم نفسه .. يرى ما يريد هو أن يراه . المصيبة المباغتة شلت العقول .. القلوب .. الألسنة .. العيون . إذا كان يمكن أن تتخيّل سماء بغير قمر ، وزرعا بلا ثمر ، ونهرا بغير ماء ، وأفقا بلا سماء .. فإن هذا بعض ما أحسه أهل قرية كفر بدواى ، لأنهم كانوا — جميعا — يحبون الفقيد ، ويتمنّى كل واحد منهم أن يكون ولده مثله فى صفاته وأخلاقه . ابن موت بحق وحقيق . !!

بعد أن مر الخميس الأول ، الذى يُسّمى « الخميس الكبير » ، بدأت النيران تتحول إلى رماد ، كما بدأت الأحزان تتبدل إلى قدر من التساؤل والتفكير . كان الجميع لا يعرفون هل مات عثمان أم قتل ..؟! لكن أهل قرية كفر بداوى — مثل أهالى كل القرى فى مصر — لا يقفون أمام أىّ لغز مهما صعُب أو استحال . عند دكان السيد الضبع البقال ، توجد مصطبة وكنبة صغيرة .. لا تخلو إحداهما .. أو كلتاهما من الجالسين ليلا أو نهارا . واحد من الخفر أسند البندقية بجواره ، وطرد نفسا من دخان السيجارة ، ومضى يقول : ألم يخطر على بال واحد منكم أن يسأل : لماذا كان عثمان يتأخر فى الحقل كل ليلة ، مع أن أباه وإخوته يعودون مبكرين . ؟ اعتدل فى جلسته وأسند يده على البندقية : الولد — الله يرحمه — كان يحب بنت بنوت .. وقلوب الشباب مثل ورق الصفصاف . أكيد أهلها

عرفوا الخبر ، وكما اعتدى على البنت المسكينة فى الليل ، حدث له ما حدث فى الليل أيضا . لكن الله .. حليم ستار . انتفض رجل كبير السن ، وقال — قبل أن ينصرف غاضبا : استح يا خفير العمدة ، مستحيل عثمان المؤدب يفعل هذا .. يا عالم إن بعض الظن إثم .. !!

كوبرى القرية — الذى يصل بين المساكن ومعظم الأرض الزراعية — مركز من مراكز السمر والسهر والأنباء خاصة بالنسبة للشباب فى أيام الإجازات الصغيرة والكبيرة . طالب فى كلية الحقوق أخذ يردد مقدمة طويلة عن أهمية القانون ، وأن من أوليات علم الجريمة أن كل حادثة ، لا بد أن يكون وراءها سبب معلوم .. أو مجهول . والأسباب المجهولة لا يكتشفها إلا دارس القانون . فهل .. عثمان مات أم قتل ؟! سؤال يبدو بسيطا ، لكن لابد منه . عثمان صاحبنا ، ونحن نعرفه حق المعرفة .. شاب طيب وعاقل ، ليس من السهل أن يرتكب خطأً .. أو يصنع مشكلة ، لذلك فإن فكرة القتل — فى رأيى الشخصى — مستبعدة تماما . لكن .. يا جماعة — صمت فترة متعمدا — موت عثمان إنذار لنا جميعا . كيف ..؟! المرحوم شكا إلىّ كثيرا بعظمة لسانه من الدم الذى يعكّر بوله . المسكين مات شهيد البلهارسيا ، وهى سوف تقتلنا كما قتلته ، إذا لم نحقق ما كان يدعو إليه من ضرورة بناء مستشفى فى القرية . طالب آخر يدرس فى كلية الآداب فى قسم التاريخ ،

اعترض ، وردّ فى حماسة : لا .. هذا ليس صحيحا يا كارم . نحن لا نقرأ التاريخ .. ولا نستفيد من دروسه . التاريخ يعيد نفسه يا جماعة ، ونحن لا ندرى . كيف .. ؟! المؤرخ العظيم عبد الرحمن الجبرتى وقعت له نفس الحادثة . دخل عليه الحمار حاملا جثة ابنه الوحيد . وقد ذكر بعض المؤرخين أن محمد على هو الذى أمر بقتله ، لأن أباه لم يؤيده ، ولم يعترف به حاكما شرعيا لمصر ، فمات الشيخ العجوز حزنا على فقد ولده الوحيد ـ دون أن يكمل كتابة التاريخ الذى بدأه .!!

مجموعة من النساء ذهبن لشراء بعض الخضراوات من دكان تفيدة أم غازى ، وجلسن يثرثرن بعد صلاة العشاء . حندوقة زوجة كاتب الجمعية قالت إن عثمان كان يحب رقية بنت شيخ البلد ، لكنها متعلمة .. وأبوها رجل غنى .. وقادر . بعد أن تزوجت موظفا كبيرًا فى البندر ، الولد ـ ياكبد أمه ـ زعل .. وطق ، مات من الحسرة . ردتْ عجوز ، وهى تهم بالقيام حاملة ما اشترته : هذه هى آخرة الحب ، ربنا يكفينا شره ، بلا حب .. بلا وكسة .. يقطع الحب وسنينه .!!

فى دكان محمد شعير الحلاق ، تناثر الكلام مع الشعر المقصوص من الرءوس ، على إيقاع المقص وحركة الموس . قال الحلاق ، وهو لا يكف عن أداء مهمته ـ رغم تغير الزبائن : لا بد أن يكون

واحد من الخفر هو الذى قتل عثمان ، لأنه كان يقول فى كل مجلس إن العمدة لم ينفع البلد بشىء ، لم يبْن مدرسة ، و لم ينشىء مستشفى ، و لم يطلب من الحكومة ـ مع أنه مرشح الدائرة ـ أن تفعل شيئا للقرية ، حتى المسجد القديم لم يعمل على دهانه بالجير أو فرشه بالحصر ، مع أنه يملك أكثر من نصف الزمام ، والأهالى يعملون عنده ويزعورن أرضه ، لكنه يأخذ الخير كله وحده ، ويصرفه على ملذاته فى البندر ، ولا ينفق منه فى البلد مليما .. مليما واحدا . يبقى خيرنا .. ويذهب لغيرنا .!! والله الولد عثمان ـ الله يرحمه ـ كان عنده حق حين نشر هذه الأفكار الجريئة فى البلد . ردّ عليه بعض الحاضرين : يا عم محمد ، حرامى بلا بيّنة ، سلطان زمانه . !!

فى مندرة الشيخ عمران جلس بعض الرجال يشربون الشاى .. ويتحدثون . حاول واحد منهم أن يتحدث عن المرحوم ، لأن سيرته أوشكت أن تكون شغل القرية الشاغل ، فنهره الشيخ قائلا : لنا الظاهر .. ولله سبحانه وتعالى الباطن ، لكل أجلٍ كتاب .. « فإذا جاء أجلهم ، لا يستأخرون ساعة ولا يستقدمون » اقرأوا الفاتحة على روحه ، وادعوا الله أن يصبّر أهله .

مجموعة من العمال والفلاحين الفقراء جلسوا فى جرن قمح أمام دار إبراهيم عمارة يتكلمون . بديز بائع الطعمية قريب منهم ، أمامه وابور الجاز مشتعلا ، والطعميةُ تقلى فى الزيت . ومع أنه بـعين

واحدة ، فإن الله قد عوض بصره فى أذنيه ، لذلك فهو قادر على أن يسمع دبيب النملة . قال معلقا : يا جماعة الموضوع ليس كما تفهمون . فكروا معى : حامد أبو عثمان كل ما يملكه من ظهر الدنيا ثلاثة فدادين ، ماذا تصنع له ولأسرته فى هذه الأيام السوداء .؟! عثمان مات من الجوع ، لأن الفقر — فى بلدنا — وصل إلى الدم ، أى والله .. لقد سمعتُ أكثر من مريض ، قال لهم الطبيب : عندك فقر دم . !! صدقتم .. ؟! الإمام على كان صادقا حين قال : « لو كان الفقر رجلا لقتلته » . قال أبو عمارة مندهشا : يا سلام يا ولد يا بدير ، والله ولا أولاد المدارس . !!

مجموعة من النساء والفتيات ذهبن لإحضار الماء من الترعة — فى صباح باكر بينما شبورة كثيفة تغطى الأفق . أحسسن أن على الشط الآخر حركة غريبة . شخص يستحم وحده بين الظلمة والضوء الخابى كان يغطس ويظهر فى إيقاع متقارب الصوت والحركة . قالت أم الخير — زوجة إسماعيل : يا جماعة اذكرن الله أحسن يكون عفريتا . ردتْ فتاة صغيرة — بين الصبا والشباب — وهى تتقدمهن واثقة الخُطى : يا أختى .. ما عفريت إلا ابن آدم . !!

عوض أفندى السيد ، مدرس الابتدائى المُحال إلى المعاش ، ذكر لبعض عوّاده فى أثناء نوبة الربو الأخيرة : والله يا جماعة .. حادثة قتل عثمان هذه ، لابد أن يكون للعمدة فيها يد . أبوه واحد من الذين لم

ينتخبوه فى المرة الأخيرة . أكيد رجل من عيونه عرف ذلك .. وقال له . حامد واحد من أهلنا يا رجال .. ونحن نعرفه .. رجل بحقّ وحقيق . لم يكن ينكر هذه الحقيقة ، وإنما كان يقول فى شجاعة عندما تأتى مناسبة : إن الرجل الذى لا ينفع بلده مثل البيت الذى لا يظل أهله ، لذلك انتقم العمدة من الرجل فى ابنه . صحيح .. الآباء يأكلون الحصرم ، والأبناء يضرسون . !!

الروايات .. والأخبار — والتعليقات السابقة فى ناحية ، وما يدور فى قهوة المعلم إبراهيم أبو زيد فى ناحية أخرى . مجموعة يلعبون الكوتشينة .. ومن يكسب يأخذ جنيها ، وأخرى تلعب الدمينو بالمشاريب ، وثالثة تلعب الطاولة .. تسالى . مجموعة أخرى لا يهمهااللعب .. وإنما الكيف . مع الحجر المشتعل والمياه التى تكركر ، والدخان المتصاعد ، تدور أحاديث أشد غرابة من حكايات شواهى أم الدواهى ، وأمنا الغولة ، والشاطر حسن ، وست الحزن والكمال . فى ركن بعيد — قريب من باب مفتوح على أرض خراب — يجلس أصحاب المزاج العالى .. الأفيون . قطعة مثل رأس الكبريت مع فنجان قهوة سادة ، تكون مبسوطا وزيادة . دار رأس البدوى أبو حمامة ، الذى يفيق لينسطل ، وينسطل حتى يرى الفأر حمارا . بدأ يفتح فمه بالكلام ، بعد أن فتح المزاج خلايا المخ : أقطع ذراعى إن ماكان عثمان قُتل بفعل فاعل . كيف

يا أبو حمامة ؟! بم عرف الناس الله ؟ بالعقل طبعا . وأنا عقلى يقول لى إن واحدا ابن حرام هو الذى قتله . من هو يا بدوى ؟ جائز واحد من الخفر .. أو الحرامية .. أو واحد مغتاظ من عائلة البدراوى . لبلدة الآن أصبحت سائبة .. ومفتوحة على البحرى . أصبح الخفر مثل الحرامية ، والحرامية مثل الخفر ، لأن حاميها صار حراميها ، كل شىء يحدث الآن عينى عينك .. صاح أحد اللاعبين فرحًا بصوت عالٍ ، كأنه أتى بالذئب من ذيله : الدومينو قفّلتْ .. !

مضى على هذا الحادث المؤسف شهر كامل . لم يستطع أيها رجل .. أو أيتها امرأة .. أو أيتها جماعة معرفة : هل مات عثمان .. أو قتل .؟! بدأت الحكايات تنتقل من مجلس إلى آخر ، ومن طائفة إلى أخرى ، لدرجة أن بعض الروايات حين تعود مرة ثانية إلى مركزها الأصلى .. كان بعض الذين قالوها أو ألفوها لا يصدّقونها .. ويستنكرونها .. أو على الأقل يتعجّبون منها ..!!

وسط الظلام مشى الشيخ رمضان المجذوب يبحث عن مكان ينام فيه ، فهو لا يبيت فى مكان واحد مرتيْن متتاليتيْن . مّر على بعض الشباب ، وهم يتحدثون عند الكوبرى .. وقد ذابت ملامحهم فى الظلام . عرفوه من همهمته التى لا تكاد تنقطع .. وصوت عصاه

يدبّ على الأرض دبيبا منتظما . اقترب منه طالب وسأله : من الذى قتل عثمان يا شيخ رمضان .؟ أسرع فى مشيه ، وجرى كأنما يهرب من شبح يطارده ، وهو يقول : وأنا .. أنا مالى .. !![1]

* * *

(١) الثلاثاء ٢٣ يوليو ١٩٩١ .
— نشرت فى : مجلة « أدب ونقد » — القاهرة .
العدد (٨٠) فى إبريل ١٩٩٢ .

سَداحْ .. مَداحْ

آه .. يا بلد بلا عمدة ... !! صاح على أبو عوضين المزين ، بعد أن خرج الحاج حسين أبو العزم من الدكان . حلق كل مكان به شعر فى جسده . اليوم فرحه . القرد العجوز سوف يتزوج الحلوة السنيورة أميرة بنت الشيخ إبراهيم عمارة . قصَّ الشعر وحلق الذقن وأصلح الشارب ... حتى الشعر الداخلى .. لكنه لم يدفع مليما واحدا ـــ رغم أنه واحد من أغنياء القرية . قال وهو يهزُّ عصاه الخيزران فى الهواء : سوف تدخل التاريخ يا ولد ، لأنك حلقت للحاج يوم فرحه .!! أى والله يا عمى إبراهيم .. البلد باظتْ .. لم يعد فيها عمدة .. ولا شيخ بلد .. ولا حتى شيخ خفر .. ولا ناس طيبون . صحيح كفر بدواى صار فيها مقر للحزب الوطنى .. ونقطة بوليس .. ومكتب تليفون .. ووحدة صحية .. ونادى شباب ..وجمعية زراعية .. وتسويق تعاونى .. ومسافرون ذهابا وإيابا .. كل هذا لم يمنع انتشار الخراب والفساد . ردَّ الشيخ إبراهيم بحزن ، وقد ضاع بصره فى الظلام : الذين استحوْا ماتوا يا على يا ابنى . كانا يجلسان وحيديْن فوق سطح دار على أبو عوضين . الليل تجاوز نصفه قليلا .. أو كثيرا . يمشى الليل .. أو .. لا يمشى ..

يذهب الليل أو يأتى النهار . لا .. لا .. لا فائدة . القشُّ مبتل بندى ليل الخريف . لم يكن الرجلان .. أحدهما .. أو كلاهما .. قادرًا على النوم فى ليلة مظلمة . همٌّ مشترك أطار النوم .. وقطع القلب .. ووجع الرأس . ضاعت أميرة من الأب .. والمحبّ .

بطلـــواده واسمعـــواده ياما بكره نشوف ويامـــه
الغـراب يـا وقعـــه سوده جـــوّزوه أحلى يمامـــه

عوضين الحلاق ــ والد على ــ كان صديقا للشيخ إبراهيم عماره الفقيه ، جمع بينهما الفقر والغلب والجيرة . حين بكى على عند وفاة أبيه ــ الذى ورث عنه الفقر .. والغُلب ومهنة الحلاقة ــ واسته الأم قائلة : أنت بلا أب .. وأميرة بلا أم .. سوف يجمع الله بينكما . أبو العزم أخذ البنت والبيت . بات وحيدا مطرودا .. يبحث عن مأوى .. ولمسة حنان ولحظة أمان . حلَّتْ اللعنـة .. وضاعتْ البركة . لا أحد يدعوه لقراءة القرآن ، حتى تطرد بركة القرآن الرجس والدنس والوسواس الخناس ﴿ .. قل أعوذ بربّ الفلق ، من شرّ ما خلق .. ﴾ . السبب .. راديو اليابان .. ودولار الأمريكان . من يصدق أن قرية كفر بدواى ، التى ليس لها مكان على الخارطة أصبح الدولار يباع فيها على عينك يا تاجر ؟! . أعطاه أحد القادمين من الخليج عشرة دولارات ، وطلب منه أن يقرأ « سورة » على روح أمه التى ماتتْ ، وهو مسافر . كان يتكلم كأن المرحومة ليستْ

أمه .. كأنما أرضعته ماء لا دما .. !! صحيح الذين استحوْا ماتوا . خذ هذه الدولارات فقد يفتح الله عليك وتذهب فى إعارة . الدولار معجزة القرن العشرين يا شيخ إبراهيم . آه يا بلد .. بلا عمدة . أصبحنا نتلو القرآن بدولار الأمريكان . يا خفىّ الألطاف .. كنْ لنا .. ولا تكنْ علينا .. علينـا السلام ورحمة الله وبركاتـه .!!! والفجر .. والدولارات العشر ... !!! الوحيد الذى يشترى العملة فى القرية هو حسين أبو العزم . صاحب محل البقالة (يدّعى أن اسمه الجديد يجب أن يكون « سوبر ماركت ») .. ومدير الجمعيـة الزراعية .. وصاحب عشرة أفدنة .. وممثل القرية فى المجلس المحلى . كيف صار حسين الحاج حسين ؟! لا أحد يدرى .. مع أنه فيما يظن لم يحج البيت .. ولا يزور المسجد .. إلا يوم الجمعة . يذهب إلى المسجد مختالا فخورا : العباءة السوداء .. الطاقية البيضاء .. الجلباب الصوف .. البلغة النظيفة .. العصا الخيزران .. المسبحة الكهرمان . الله يحب أن يرى أثر نعمته على عبده . يتحسس شاربه وهو يقول هذه العبارة مفتخرا . الصفة التى تميزه هى أنه « ابن سوق » . تاجر .. شاطر . يأخذ سمسرة عند البيع والشراء والزواج والطلاق والفرح والمأتم . له بقشيش عند كل من يأخذ أى شىء من الجمعية .. حتى لو كان يأخذ سلفة . طالع واكل .. نازل واكل .. رجل كل المناسبات ، حلاّل العقد ، ومعقّد المشكلات . يسميه

بعض شباب القرية حسين « الجاهز » ، لأنه جاهز لأيتها خدمة .. وفك أى لغز .. وسبك أية فضيحة . أهم موسم لنشاطه هو موسم الانتخابات . صحيح أنه رجل الحكومة ، وابن الدائرة منذ هيئة التحرير .. والاتحاد الاشتراكى ، لكنه يتفاوض ويساوم مع مرشحى اليمين واليسار والوسط . كان فى الأصل من أعضاء حزب الوفد .. وهو متعاطف مع الإخوان المسلمين . بورجوازى .. انتهازى .. يشترى أى شىء .. ويبيع كل شىء . يستطيع أن يكتب بالقلم الأسود والقلم الأخضر والقلم الأزرق والقلم الأحمر .. « فتّحْ عينك تاكلْ ملبن » . له فى الدائرة معارف لا تعدّ ولا تحصى : فى المحافظة والنيابة والبوليس ومديرية التعليم وإدارة التموين .. حتى وزارة الأوقاف . عصفور النار .. النار .. النار .. عصفور .. عصفور . !! على سطح الدار الشاب الصغير .. والرجل العجوز ، كل منهما يفكّر فى المصيبة بشكل مختلف .. مع أن المصيبة واحدة .. والكارثة هى هى .. جوازة الشؤم . شقّ جدار الظلام ، وشرخ سكون الليل صوت على أبو عوضين ينوح ويتلوّى :

الناس لها جَرحْ واحد ، وأنا جسمى ملان ومحمّل
وبفوت ع الخِصم واسْقْ غُلب ومحمّلْ
وشايل الحمل ياما يَقاسى ويتحمل

واللى عمل ضهره قنطرة للدوس   يتحمل

اهتزَّ الطائر الجريح . اصبرْ يا ابنى .. الدنيا ما زالتْ بخير . أنت الذى تقول هذا ؟ . الدنيا خربت .. وباظت وتقول اصبرْ .. !! أنت تعرف .. لكنك لا تريد أنْ تنطق . أنت .. أنت السبب .. أى والله .. أنت السبب ..!! خنقته الدموع .. ارتعش القلب بين الضلوع .. اهتزت أعضاؤه . بكى بعضه على بعضه .. وكله على كله . هذا اليوم كان ينبغى أن يكون يوم فرحه .. العجل هدّ المصطبة . !!

أبُوخْ يا أبُوخْ   كبشِ العربْ مدبوخْ
وامه وراه بتنُوخْ   بتقول يا وَلدى
يا طالع الشجرة   هاتْ لى معاك بقره
تحلبْ وتسقينى   بالمعلقة الصينى

هل أتاك حديث أميرة الصغيرة .. ذات الضفيرة . ؟! يمامة وديعة فى السادسة عشرة ذهبتْ تغيّر الدولارات العشر . حين رآها أبو العزم دخلتْ قلبه . وجع الله قلبك يا بعيد .. !! فى اليوم التالى قبل أن تشرق الشمس كان قلبه يدقُّ فى صدره بصوت أعلى من دقات يده على الباب . الثعلب العجوز يعلم أن صاحب الدار بعيدٌ عن الدار .. هذا وقت تلاوة القرآن فى بيوت المعمِّرين .. الذين ورثوا هذه العادة ، ويعرفون بركة القرآن .. ويستحقون بركة القرآن .

النوم مازال يُداعب جسدها وعينيها . تفاحة ناضجة تطلبُ من يأكلها . طاب التفاح واستوى الرمان . بدت شعيرات صغيرة تحت الإبط ، وهي تشد الجلباب الملوّن ، حتى تستر الأجزاء العريانة من صدرها وذراعيْها . حين رآها فى قميص النوم أدرك أنه لا يجب أن يتراجع . لا بد أن ينفّذ ما أراد . تغير كل شيء فى القرية ، رغم أن كثيرا من معالم القرية ما زالتْ كما هى : المسجد .. الجبّانة .. ماكينة الطحين .. المدرسة الإلزامية .. (تسمى الآن الابتدائية) .. الشوارع .. الحارات . الشيء الوحيد .. الجديد هو دور المسافرين ، الذين فتح الله عليهم ، وذهبوا إلى بلاد البترول ، وعادوا بدولارات الأمريكان .. وأجهزة اليابان . حدّثنى أبى — رحمةُ الله عليه — يا سادة يا كرام ، يا من تعرفون أسرار الصمت والكلام ، أن وزيرًا عاقلا أراد أن يقدّم نصيحة لملك طاغية ، فقصَّ عليه قائلا :

إن بومة فى البصرة أرادتْ أن تزّوج ابنها من ابنة بومة فى الموصل ، فوافقتْ .. لكنها اشترطتْ على البومةِ الأولى أن يكون المهر مائة قرية خراب ، فأجابتها بومة البصرة : لا أستطيع أن أفعل ذلك الآن ، ولكن إذا بقى السلطان عاما آخر ، قدمتُ لك هذا المهر وزيادة .. !! أبو العزم جاهز لكل حالة .. وعنده لكل حادثة حديث .. كأنما بلع راديو من بلاد اليابان ، متعدد الموجات والمحطات . تعالى بجوارى يا أميرة . استقرت البطة .. فى المحطة ..

فلفل شطة . نظرتْ فى براءة ، لم تعرف لماذا يحرك لسانه حول شفتيه .. ثم يدخل كل شفة فى الأخرى . كان يحرك شفتيه بعصبية . اشتعل الشيب فى شاربه .. وفى رأسه .. وفى بعض شُعَيْرات حاجبيْه . اليمامة الوديعة تدارى الخجل .. وتستحى من نظرات الغزل . نار حامية انتقلتْ من اللحم إلى العظام .. ومن العظام إلى النخاع ، حين وضع يده اليسرى على كتفيها ، وتحسس ذراعها المرتوية . دائما يوقظها من النوم .. ويقول كلاما .. لا تفهم أكثره . تتظاهر بالصمت . أرجو أن تساعدينى — يا حبيبتى .. استدرك .. ثم قال يا ابنتى .. أى والله أنت مثل ابنتى يا حبيبتى — أريد أن يصبح أبوك مأذون البلد ، لم تعد الصحة تساعده على فتح الكُتَّاب ، ولا أحد يطلب منه القراءة فى البيوت ، حتى المقابر لم يعد أحد يهتم بقراءة القرآن عندها فى الخميس والأربعين والسنوية والمواسم المختلفة . وهذه الدار — دار أبيك يا أميرة تحتاج إلى إصلاح وترميم ودهان . دارك قديمة يا شيخ إبراهيم .. فيها شقوق كبيرة .. وحيطان مائلة .. ونوافذ مفتوحة .. وأبواب مكسورة . صحيح الدار قديمة ، لكنها فى موقع « استراتيجى ». لم يسمع الرجل .. أو ابنته هذه الكلمة من قبل ، كما أن أحدهما أو كليْهما لم يعرف لها معنى . الأب أفهم ابنته عند تناول الغداء ، أن أبو العزم صار من الناس الكبار ، يعرف المأمور والمحافظ وعضو مجلس الشعب ..

وغيرهم من عِلية القوم ، لأنه « لبلب » فى الكلام .. يعرف ماذا يقول .. ومتى يقول .. وكيف يقول . سكت الشيخ ، وهو يضع فى فمه ملعقة أرز وقطعة بطاطس . أصبح من المألوف أن يزورهم أبو العزم كل يوم .. وفى أى وقت . ازدادتْ حيرة الشيخ وابنته حين قال ذات مرة : لازم تكون « جِنتل مان » يا عم إبراهيم . سوف أجعل دارك « مودون » .. وأنت شيخ « مودرن » .. وأميرة — التى هى مثل ابنتى تماما .. أى والله — لابد أن تكون أميرة « مودرن » . أعجب الرجل الطيبّ وابنته بكلمة « مودرن » دون أن يعرفا لها نُطقا صحيحا .. أو معنى صريحا . استجاب لكل ما طلب .. ونفّذ كل ما قال . الحلم الكاذب جعل الجمل الساذج يقع فى الشرك العظيم . الكلام الجميل سحْرٌ مبين . أصلح الدار .. وقَّع على كمبيالة .. دهن الحيطان والأبواب والشابيك .. ووقّع على كمبيالة ثانية . جدد وغيَّر معظم أثاث البيت .. ووقَّع على كمبيالة ثالثة . كل شىء جديد بكمبيالة .. لم يعد قادرا على تذكر عدد الكمبيالات ، أو حجم الديْن .. وأرباح الديْن . فى كل مرة كان أبو العزم يُبدى مشاعر طيبة .. ويقول إن الناس للناس .. ومن قدَّم السبتَ وجد الأحد .. وأن الله فى عوْن العبد ما دام العبد فى عون أخيه . وهو يقول إن الشيخ إبراهيم مثل أخيه ، ابن أمه وأبيه . الدنيا مازالت بخير ، طالما فيها أمثال الرجل الطيب الحاج حسين أبو العزم . أحس الشيخ بالرضا

حين رأى داره أجمل من دور الذين سافروا إلى البلاد البعيدة . صار كل ما فيها جديدا فى جديد ، كأنما انفتحتْ طاقة القدر . بل إن داره صارتْ أفضل من كل دور المسافرين ، التى تقع فى أطراف القرية ، لأنها كانت أراضى زراعيـة . أمـا داره هـو فهـى فى موقـع « استراتيجى » .. وهى أيضا دار « مودرن » لا يدرى .. لم أحس أنه قد أصبح غريبا فى داره .. كأنما لم تكن داره . الأعجب من هذا أحس أنها قد اتسعت عليه ، لم تعد تصلح له ، و لم يعد يصلح لها . استغفر الله من شرِّ الوسواس الخناس ، الذى يوسوس فى صدور الناس . هذا فضل الله يا إبراهيم يؤتيه من يشاء . ذات مساء .. فى يوم ثلاثاء ـــ لا يستطيع أن ينساه ـــ دخل أبو العزم ، فقد صار واحدا من أهل الدار ، يدخل .. ويخرج .. متى يشاء .. وكيف يشاء . ! يجلس على أحد كراسى « الأنتريه المودرن » ، الذى اشتراه ووضعه فى صالة الدار . جلس .. وطلب من أميرة .. أن تحضر له قلة الماء . نقل بصره بين القلة الباردة .. والحمامة الوديعة . حلوة .. صلاة النبى . فتحة الثوب تكشف عن مقدمة الثديين . البشرة ناعمـة رقيقة . هذه هى الحريم بحق وحقيق يا أبو العزم زوجتك تـأكل وتتعالج .. لكن لا فائدة منها فى ليل أو نهار . هناك فرق .. لا هناك ألف فرق . الورد جميل .. جميل الورد .. كل شىء فيه جميل . أخذ يعبث فى شاربه ، ونظر إلى الشيخ إبراهيم : ما رأيك الآن فى الدار

وفى الأثاث ؟ قبَّل الشيخُ ظهر يده اليمنى وباطنها : الفضل لله .. ولك ، لن أنسى هذا المعروف.. فعلتَ ما لا يفعله الأخ الشقيق . كانت الفتاة تتابع الحوار .. وهى لا تدرك كثيرا مما يـدور بين الأب .. والرجل ، الذى أصبحت تقول له : يا عمى . أول رجل تحس من نظراته الجائعة أنها أنثى . لم تكن تعرف فى عالم الرجال سوى الأب .. وعلى أبو عوضين . هناك فرق .. فرق كبير ، بين الحاج حسين .. والولد على .. !! الكمبيالات الآن مرَّ عليها تسعة شهور . تعرف أننى تاجر ، والتاجر لابد أن يجعل أمواله تذهب وتجىء . أخرج الكمبيالات التى وقع عليها الشيخ بخاتمه وبصمة إصبعه . الحساب الآن يا عمى — لماذا صار يقول له كثيرا فى هذه الأيام يا عمى ، وهما فى سن واحدة تقريبا . ؟! — عشرة آلاف جنيه . أليس هذا كثيرا يا رجل .؟ هذه جملة الدين والأرباح . الشغل شغل .. « بِيزنسْ » يا عمى الشيخ .!! وماذا تريد الآن ؟ أريد مالى . تعلم أنه ليس معى . الحق حق .. وأنت تحفظ كلام الله ؛ والله يطلب منّا أداء الأمانة . الشيطان يعظ .. ويفتى .. سبحان الله . نظر إلى أميرة فوجدها تجلس القرفصاء بجوار أبيها على كنبة الأنتريه . طلب منها أن تعمل كوبيْن من الشاى ، حتى لا تسمع المزيد مما يدور بينه وبين أبيها . اسمع يا عمى إبراهيم — مازال الثعلب مصرًّا على أن يقول له يا عمى — الكمبيالات الآن مرَّ على موعد

استحقاقها تسعة أشهر .. لو كانتْ حاملةً لولدتْ . فى مثل هذه الحالة لو ذهبتُ بها إلى المحكمة ، فيكون الدفع أو الحبس . لكنّى أكلتُ معك خبزا وملحا . !! تعرف من البداية أنه ليست معى نقود . لم أطلب شيئا .. ولم أكن أرغب فى شىء . سهّلتَ كل شىء .. وعملتَ البحر طحينة . كل شىء كان بموافقتك . هذه هى الكمبيالات .. وهذا هو خاتمك .. وهذه بصمة إصبعك يا عمى . انظر .. الخاتم .. البصمة .. التاريخ . كل شىء بـالأصول .. والقانون . نحن إخوة صحيح .. لكن هذا « بيزنس » يا عمى . أحس العجوز الفقير انقباضا فى الصدر .. وغصة فى الحلق . هناك مشاعر لا نستطيع وصفها .. ومواقف لا نقدر على الحديث عنها . لم يعد يرى .. يسمع .. يفهم .. يتكلم . القارعة ما القارعة .. الدولار والمنشار .. ترى الناس سكارى ، وما هم بسكارى . يا خفىّ الألطاف ..!! أعاده أبو العزم إلى دنيا الواقع . أفهمه أنه لن يذهب إلى نقطة بوليس .. أو محكمة — كما يفعل مع أىّ شخص غريب ، لأن هذا لا يجب أن يكون بين الأصهار . صهر .. صهر منْ يا بعيد .. يا ابن الـ .. ؟! صهرك يا عمى . أميرة فى سن أولادك . النبى عليه الصلاة والسلام تزّوج من السيدة عائشة .. وهى فى سن أصغر منها . لو خلق الله عفريتا من الجن .. لما كان سوى هـذا الرجل . بعد أن وافق مكرهًا على طلب يد ابنته ، أخبره أن زوجته

القديمة لن تقبل وجود « ضرة » معها فى البيت . إنها الآن — شفاك الله وعافاك يا عمى — مريضة .. وكبيرة ، وهو لا يريد أن يُوجع رأسه منها .. أو من أولادها . كما أنه يخشى على أميرة منها .. ومن أولادها . الحل الأفضل .. هو الحل السلمى . ولا من شاف .. ولا من درى .. ولا من سمع .. ولا من رأى .. ليس بين الخيّرين حساب يا عمى . تنام فى الليل مع على أبو عوضين .. وفى النهار تأتى إلينا . ضحك ضحكة صفراء : نريد شهر عسل دون إزعاج . !! إن شاء الله أميرة تلد ولدا ونسميه إبراهيم . لا يضير الشاة سلخها بعد ذبحها . سلّم واستسلم .. حتى الكمبيالات ما زالت عنده . ليلة فرح الابنة .. ليلة مأتم الأب . كل شىء تمَّ فى السر ، حتى لا تعلم الزوجة المريضة . لم تتزوج فتاة بكر فى القرية بهذه الطريقة منذ وعى الدنيا . الدنيا تغيرت .. لم تعد دنيا الناس الطيبين . أحب فى أميرة صورة أمه . كل شىء فى الحفيدة يذكّره بالجدة . رغم قوة إيمانه أحس أنه مذنب فى حق نفسه .. وفى حق أميرة .. وفى حق أمه .. وفى حق الدار ، التى ورثها أبًا عن جد . تمنّى أن يقبّلها .. قبل أن يخرج ويغلق الباب عليهما . لكنه لم يستطع .. ولم يحاول . خلف الباب المغلق يلتقى العُهْر بالطهر .. والدناءة بالبراءة .. آه .. يا بلد .. !! لم يكن يحس بعلى .. كما لم يكن يحس على به . لعنة الله عليك يا حاج حسين .. من قال إن هذا الملعون حاج .. أو يعرف أىَّ حد

من حدود الله .. ؟! أخذ كل منهما يناجى النفس اللوَّامة . الفقر .. القهر .. شل الإرادة . تاه كل واحد من الرجلْين وسط كومة من القش المبتل . لم يكن أى واحد منهما يرى شيئا فى الظلام . لم ير كل منهما الآخر . لم تعد العين قادرة على النور من كثرة ما تعوَّدتْ الظلام . لا فائدة .. لا أمل فى شىء .. أى شىء . شق صمت الظلام صوتُ على أبو عوضين . آ آ آ ه .. آ ه يا بلد .. آ آ آ ه يا بلد بلا عمدة ... !![1] .

---

(١) ٣ / ٣ / ١٩٩١ .
نشرت فى مجلة « إبداع » القاهرية .
العدد (٦ / ١٠) فى يونيو ١٩٩٢

ال رِّجال .. و .. ال بُرتُ قال

فى حديقة البرتقال ، على كرسى من الجريد ، جذب الرجل الكبير أطراف العباءة فوق كتفيه . رائحة زهر البرتقـال ، شمس الشتاء الدافئة ، منظر اللص مربوطا إلى شجرة الكافور .. كل ذلك جعله ، يحس نشوة غريبة ، ظهرت آثارها على وجهه الأبـيض المشوب بحمرة لامعة . كلما ضرب الخفير اللص ازدادتْ فرحته : اضرب قوى يا ولد يا على ، حتى لا يجرؤ هذا اللص على سرقة سيده مرة أخرى . مرت مجموعة من العاملات ، يحملن البرتقال إلى المكان الذى يُعبأ فيه ، وينقل إلى سوق البندر ، واحدة تنشد ، والبقية تردد :

يـا برتقـان يابـو سُرة وحلفتْ ما اخدك على ضُرة
لامونى فيك وأنـا حُـرة وادلـعْ يـا رشيـدى
على وش الميـه
سيبْ شَعرى وامسك إيدى
على وشّ الميَّـه

الحاج سيد .. كبير عائلة السبع ، وكبير البلدة كلها ، يعرف أن اليوم الأربعاء ، والفصل هو الشتاء ، والسماء زرقاء ، والبحر فيه

الماء ، وأن الخراف لها قرون ، والحمير لها ذيول ، والبقرة تلد ، والثور لا يحُلب ، كما يعرف أيضا أن من معه قرش يساوى قرشا ، ومن معه جنيه يساوى جنيها ، ومن ليس معه شيء .. لا يساوى شيئا ـــ على الإطلاق . يعرف أكثر أن الكبير يجب أن يظل كبيرا ، والصغير ينبغى أن يبقى كذلك ، هذه إرادة الله ربِّ السماوات ، الذى رفع بعضكم فوق بعض درجات . !! عائلةُ السبع ـــ عائلة عريقة فى الغنى والجاه ، وقد ورثت ذلك منذ عصر الخديوى .. والإنجليز .. والملك .. والثورة .. وربما من عصر الفراعنة .. والبطالمة . وقعت برتقالة فى حجره ، هل سقطت صدفة .. ؟! البرتقالة ذات سرة مستديرة ، جلدها قوى ناعم ، لونها أصفر فاقع يسر الناظرين ، مثل لون الخمر المعتَّق ، أخذ ينقلها بين يديه فى شوق ومودة . عاود النظر ناحية الشجرة العتيقة ، الخفير ما زال يضرب الحرامى ، الذى تجرأ وسرق حديقة كبير عائلة السبع ، الخفير على أبو حمودة يضرب فتوح أبو عمر لكماً بيديه ، وركلاً بقدميه ، أحيانا يشده من أذنيْه ويضرب رأسه فى رأسه . الخفير كان سعيدا ، لأنه أثبت لولى نعمته أنه حارس أمين . سرقة البرتقال ـــ مثل أيتها سرقة فى هذه الدنيا ـــ تحدث غالبا فى الفترة من منتصف الليل إلى أن يتبين الخيط الأبيض من الخيط الأسود . فى الليلة السابقة لم ينم ، بعد أن لامه الحاج وهدده . لابد أن يعرف من الصعلوك الذى سرق ابن

الملوك ، إنه كبير القرية ـــ باعتراف الجميع . لا يستطيع ضابط النقطة ، ولا العمدة ذاته ، أن يرفضا له طلبا ، كبير البلد .. والكبير كبير ، والمياه لا تصعد إلى العالى ، والعين لا تعلو على الحاجب . معظم أهل القرية يستفيدون منه ، خاصة من يرضون عنه ، ويرضَى هو عنهم . رجل خيِّر .. يعرف نوع الخير ، الذى يجب أن يقدمه لأنصاره .. وكيف .. ومتى .؟! الحياة .. أخذ وعطاء ، يحاول أن يأخذ كما أعطى .. وكما يشاء . المسبحة لا تغادر يده ، مع أنه نادرا ما يُصلى ، يسميه بعض الطلبة « المِنْشَار » . وقد اختـار لحراسة الحديقة على أبو حمودة ، مع علمه بأنه ابن ليل . حتى تؤدب اللص ، وتحمى نفسك منه ، اجعله حـارسا ..!! بهذا يُصبح الحرامـى المحامى . منطق غريب .. لكنه منطق .. !! بعد أن عُيِّن الرجل فى حراسة الحديقة ، لم يسمع أحد أنه عاد إلى السرقة أو غيرها من الأفعال البطَّالة . كذلك كان الحاج سيد مستريحا لوجوده ، وراضيا عن سيره وسلوكه . وقد صدق ظنه .. كلب واحد ، يحميك من بعض الذئاب .. وكل الكلاب . بعض الشر أهونُ من بـعض . الكلب إذا شبع يكون يدك التى تبطش ، ورجلك التى تدوس ، وأسنانك التى تعضُّ ، تعرف عضة الكلب .. وتعرف أيضا أن ذيل الكلب لا ينعدل حتى ..!! تناول الخفير عشاءه ، وشرب كوبا من الشاى الثقيل ، ثم دخَّن الجوزة المعمَّرة بالحشيش المعتبر . استعد

للمهمة بعد أن صار المزاج .. تمام التمام . فى مكمنه داخل العشّ رقد على بطنه ، والبندقية بين يديه مجهزة للضرب . لم يعد فيه سوى عينيْن تحاولان الرؤية فى ليل معتم ، وأذنيْن ترهفان السمع فى أفق راكد. فتوح يعرف أرض الحديقة ، وكل أراضى زمام القرية ، فقد اشتغل فى كل الأراضى .. وعند كل المالكين . رجل فقير .. له زوجة وخمسة أطفال . ماذا تصنع أجرة شغال باليومية لسبعة أفواه ؟! عندما عاد إلى الدار ليلة أمس ، سأله ولده الصغير عبد الرحمن : لماذا لا نأكل اللحم والفاكهة مثل غيرنا يا أبى ، حتى البرتقال لا نأكله فى عز الموسم ؟ بكى قلبه ، ولم ينطق لسانه . الأطفال تمنحهم البراءة مُخيِّلة خصبة ، فيجيدون طرح الأسئلة ، لكنهم — فى الغالب — لا يتلقون عنها إجابات صحيحة . خمسون عاما .. وهو يشتغل مثل الثور المعمَّى فى قرية كفر بداوى . لا يرفض أىّ عمل .. من أجل أن يُسكت المعدة ويستر العفة . رغم الفقر وكثرة العيال وسوء الأحوال ، فإنه لم يكن ساخطا ، فقد حرمه الله — جلت قدرته — من المال والأرض ، لكنه عوضه بالصحة والعيال . « المال والبنون زينةُ الحياة الدنيا .. » وهو راض ، لأنه يملك نصف زينة الحياة . أحس فتوح وجعًا فى القلب ، حين بكى ولده من أجل برتقالة . وقف الكبير الفاهم عاجزا أمام الطفل الصغير . يا ألله .. أنت ربى ، وأنا عبدك . لم أكذب ، ولم أسرق ، ولم أزن ، ولم أفعل

ما يُغضبك . إننى قانع وقادر على التحمل ، لكنّى عاجز ضعيف أمام طفلى الصغير . يا ألله .. اغفر لى هذه الزلة ، ولن أمدّ يدى بعدها إلى ما متعتَ به غيرى . كل ما أريد .. سبع برتقالات فقط ، لن تنقص شيئا من حديقة ، لا يقل ما بها عن سبعة آلاف . قفز بخفة من الطريق إلى جسر الحديقة . صدى الحركة فى المحيط الساكت أثار انتباه الخفير ، فهو ابن ليل ، يدرك رائحة الأشياء قبل صوتها . حاول فتوح أن يجتاز السلك الشائك — الذى يحمى أرض الحديقة — بجهد وصعوبة ، حتى لا يجرح جسده ولا يقطع ثوبه ، أو تقع طاقيته . لن يبتعد كثيرا عن الجسر ، كل ما يريده سبع برتقالات ، يستطيع أن يجمعها من شجرة واحدة . هدوء الليل ، وزهر البرتقال ، جعلاه يحس نشاطا وحيوية — رغم أنه لم ينم حتى تلك اللحظة المتأخرة من الليل ، يا أبو الغلابة ياليل .. !! ماذا لو حاول أن يأكل ما يشاء ، ويشبع مرة واحدة فى حياته ، لكنه لم يأت هنا من أجل نفسه . تخيل زوجته وأبناءه — وهو يفرغ ما حمل من برتقال فى حِجْره أمامهم . سوف يجمعهم — حتى لو كانوا نائمين — ويسعد بمنظرهم ، يأكلون البرتقال . بينما أمسى مشغولا بجمع البرتقال ، وتائها فى دائرة خواطره المبعثرة ، بدأ الخفير يتحرك — فى خفة وحذر — ناحيته ، ويراه من حيث لا يراه . لابد أن يتمهل ، ليضبطه متلبسا . قطع فتوح برتقالة ، فأحدث شرخا هامسا فى جدار الصمت . تجمعت

الأدلة .. وظهر السارق والمسروق . اللص لا يضبطــه إلا لص مثله .. !! همَّ بأن يأكل برتقالة ، فشعر أن ولده أحق بها منه . تخيل ولده باكيا ، وأسرته جائعة . لا تحزن يا ولدى .. سوف أحضر لك البرتقال ، الذى طلبته ، أبوك رجل فقير مظلوم . تخيل ولده عبد الرحمن يقول : الظالم والساكت على الظلم فى الجزاء سواء يا أبتاه . انشقَّ ظلام الليل ، وظهر أمامه شبح الخفير شاهرا البندقيــة فى صدره : مكانك وإلا أطلقت النار . اهتز .. ارتعش ، لم يدر ما يفعل . البرتقال فى حِجره مبتل بقطرات الندى . تحجرت يده على طرف الجلباب . لم يكن أحدهما بقادر على أن يميز ملامح الآخر وسط الظلام . الخوف .. والذل .. سيطرا على مشاعر الرجل الفقير . من أنت .. تكلم وإلا .. ؟! أنا عمك فتوح يا على . هدأ قلب الخفير قليلا .. حين عرف أن الحرامى الذى ضبطه ليس رجلا شريرا ، أو لصا محترفا . ماذا تفعل هنا يا حرامى .. ؟ وَزَّة شيطان يا على يا ابنى .. أصل الولد الصغير عبد الرحمن .. لا أريد أن أعرف قصة حياتك ، أريد فقط معرفة أسماء العصابة التى تسرق معك . أنا رجل مسكين ، غلبان ، والبلدة كلها تعرف ذلك . البلدة كلها ــ مثلى ــ مخدوعة فيك ، خلف هذه الطيبة الظاهرة حرامى حَوِيط . قلت لك أنا غلبان .. هذه أول وآخر مرة ، استرْ علىَّ يا رجل يا طيب . لكزه بمقدمة البندقية فى صدره الجاف ، فكاد يكسر أحد

ضلوعه : كيف أستر على من فضحه الله ؟ لن أفعلها مرة ثانية يا على . يا رجل يادون ، لقد سرقتَ حديقة الرجل الصالح ، أنت والعصابة التى تعمل معها .. قل من هم ، حتى أجعل الحاج سيد يسامحك . بدأت ملامح كل منهما تتضح للآخر . لم يكن يظن أنه قد يقع فيما وقع فيه . لم تعد للندم فائدة . أهل القرية يحبونه ويحترمونه ، ماذا سوف يقولون عنه عندما يُفضح أمره . الناس لا تصدق أنباء الخير والنجاح ، لكنهم يصدقون — أسرعَ من البرق — أخبار الشر والسوء ، حتى لو كانت — كما هى فى الغالب — مجرد إشاعات . الناس — كل الناس — فيهم جانب شرير خفى ، يبدو أكبر بكثير جدا من أية رغبة خيِّرة . ماذا سيقول الناس ، لأبنائه ، الذين فعل ما فعل من أجلهم . وهل هؤلاء الأبناء أنفسهم مستعدون للعفو والغفران ، أم أنهم سوف يصدقون — مثل غيرهم — ما يقوله الناس عن أبيهم .؟! لماذا سكتَّ .. هل أنت أخرس ؟ لم لا تريد أن تذكر أسماء العصابة .. ؟ لا عصابة ولا يحزنون يا على يا ابنى ، قلت لك الولد عبد الرحمن كان يريد برتقالة .. عدت مرة ثانية للمراوغة والبكش ، لا تريد أن تعترف . لكن الذى يُحيِّرنى فيك أيها اللص الخبيث ، هو كيف استطعت أن تقنع شركاءك ، وتحرضهم على سرقة الرجل الطيب ، الذى يعرف ربه ، ويؤدى الفرض والسنة ، ويعمل المعروف فى كل الناس ، حتى لو لم يطلبوا منه . صدِّقنى يا رجل ..

أبوس رجلك ، اتركنى أذهبْ .. ولن ترانى ثانية . اخرس يا كلب . عيب يا ولد يا على أنا فى سن أبيك . وهل يعرف مثلك العيب يا حرامى ؟ تعال معى .. جذبه بقسوة من يده . مشى — باستسلام ومذلة — بجواره ، يجر قدميه ، ويده لا تزال ممسكة بطرف الجلباب والبرتقال فيه . بينما العجوز الفقير يبكى على نفسه .. وعلى أولاده ، كان الخفير مبسوطا ، لأنه سوف يثبت لولى نعمته ، أنه قد وضع ثقته فى محلها ، وأن هذا هو اللص الذى يبحثون عنه ، قبل أن يمضى أسبوع واحد على تهديد الحاج سيد السبع له : الإيراد ناقص جدا هذه الأيام يا ولد يا على ، اللصوص يسرقون المحصولَ وأنت تأكل أرزا باللبن مع العفاريت . واحدة من اثنتين : إما أنك شريك معهم ، أو لا تبيت هنا فى الليل . تأخذ راتبا ، ولا تؤدى عملا . تحسس شاربه الضخم ، وأخذ يحرك حبات المسبحة فى رتابة : سوف أجعلك تعود إلى الليل الذى انتشلتك منه ، هذه الشجرة التى أمامك — شجرة كافور ، زرعها أبى بنفسه هنا ، منذ كان صغيرا . سوف أربطك فيها إلى أن تموت ، ويعرف أهل البلدة جميعا جزاءَ من يخونُ عائلة السبع . لمعت فى ذهنه الفكرة ، التى راودت سيده من قبل . أحضر حبلاً من العُشّ ، وربط الحرامى إلى جذع الشجرة العتيقة ، بعد كل لفة يلفها حول جسده النحيل ، يعقد عقدة بالحبل ، حتى يصير هو وساق الشجرة شيئا واحدا . استسلم لقدره ،

وهو نادم على ما فرط فى حق نفسه وحق أولاده . العاطفة العمياء قد تقود المرء إلى التهلكة . سوف تكون فضيحته فى البلدة بجلاجل . الناس أجسادهم من طين ، وأخلاقهم من زفت وقطران . لن يغفر له أحد ممن يعرف أو لا يعرف ، حتى لو كانت تهمته حفنة برتقال من أجل أسرة بائسة . طال صبره وصمته ، تمنى أن يحرق الله كل برتقال الدنيا . برتقالة واحدة من أجل طفل صغير .. هى التى فعلت فيه كل هذا .!! تركه الخفير مربوطا إلى الشجرة ، حتى يطلع الصباح . مرت ساعات الصباح بطيئة ، كل لحظة تمر عليه ، تحرق أعصابه ، وتقطع كبده . أول مرة يتأخر عن أولاده — دون أن يخبرهم بمكانه . الجو شتاء .. لكن الشمس دافئة .. حارقة ، فهو يقف فى مكان ليس به ظل . رفض الخفير أن يقدم له شربة ماء ، لكن واحدة من العاملات أشفقتْ عليه ، فسقته دون أن يراها أحد : اشربْ يا حَبة عينى ، ربنا يسترها معاك . نادى على الخفير ، وأخبره أنه يريد أن يقضى حاجته ، فرفض أيضا . غَصبًا عنه .. اضطر المسكين أن يتبول على روحه ، اغرورقْت عيناه بالدمع وهو مهموم حزين . لم يعد قادرا على أن يصلب طوله . الحبل علَّم — بقوة — فى كل مكان التف حوله من الجسد الجاف . قال ربِّ إنى وهن العظم منى ، واشتعل الرأسُ شيبا ، و لم أكن بدعائك رب شقيا . لا يدرى لم استجاب إلى صوت الشيطان ، عَصِىِّ الرحمن .. وعدو الإنسان .

غاب عن الوعى — أو هكذا هُيّئ له — بعد أن استشعر الذنب ، وأحس الفضيحة آتية . حاول أن يفتح عينيه بصعوبة ، لم يستطع أن يرى شيئا — رغم ضوء الشمس ، كذلك لم يقدر على أن يرى صورة الحاج بعد أن استدعاه على أبو حمودة . وقف الرجل أمامه — دون أن يراه — يملأ الجلباب الصوفى الواسع ، والعباءة السوداء الفضفاضة ، ويستند — فى كِبرٍ وغطرسة — على يد عصا من الخيزران السميك . جسده مترهل شحما ولحما طريا . وجهه أبيض مشُوب بحمرة ، فبدت بشرته دما صافيا . ذقنه حليق ، الشارب كثيف تحت أنف ضخم ، وهذا ما قد يوحى باتساع فمه وسلامة أسنانه . قال الخفير : هذا هو اللص ، الذى ضبطته بالأمس يسرق البرتقال ، لكنه لا يريد أن يعترف بأسماء العصابة التى تسرق معه . بصق الرجل الفخم الضخم فى وجهه ، وضربه بالعصا من يمين وشمال — دون أن يُبالى أين يمكن أن تكون قد وقعت : هذا أنت ؟ ياما تحت السواهى ... كل موسم أعطيك الصدقة ، لكن لا فائدة . الدنيا .. لم يعد فيها وفاء أو أمانة ، لم يعد أحد يخشى الله ، الدنيا خرِبتْ .. الصعاليك تريد أن تتساوى بالملوك . حاشا لله .. الله له حكمة فى كل شىء ، يعزُّ من يشاء ويذل من يشاء ، يُغنى من يشاء ، ويفقر من يشاء ، لكن الطمع أعمى قلوب البشر . الدنيا تخرب والقيامة تقوم ، لو تساوى الفقراء مع الأغنياء . الذى غرك بى ،

وجعلك تتجرأ على سرقة مالى وحلالى ، هو أننى رجل طيب .. كريم .. أعرف الواجب ، وأعمل المعروف . هل هذا يجوز يا بلد .. هل هذا يصح يا كلب ، تعض اليد الكريمة التى طالما أحسنتْ إليك ؟ لا حول ولا قوة إلا بالله .. لا حول ولا قوة إلا بالله . !! لم يكن فتوح قادرا على أن يفعل شيئا ، كان عاجزا حتي عن الرؤية والسمع . لم يعد قادرا على أن يُمسك أعضاءه المفككة ، لولا الحبل يُمسكه لوقع أرضا . تركه الحاج سيد وجلس أمام العش على كرسى من الجريد . وضع ساقا على أخرى . أسند العصا بجواره . أخرج المسبحة الكهرمان من جيبه : اسمع يا فتوح الكلب .. لولا أن الله يحبني ، ويعرف أن مالى حلال ، ما وقعت هذه الوقعة . لن أتركك ومن معك تأكلون مالى عيني عينك . !! أنت من أهل البلدة ، لكن يبدو أنك لا تعرف مقامي . لن أشكوك إلى عمدة القرية أو ضابط النقطة — أخذ يضع باطن كفه اليسرى على صدره مرات متتالية — لأني أعتبر نفسي — بحمد الله — البلدة والحكومة . التفت ناحية الخفير : اضربْ .. اضربه يا ولد ، حتى يندم على ما فعل ، ويندم لأنه جاء إلى هذه الدنيا ، ويعرف أن ممتلكات عائلة السبع محرمة عليه وعلى غيره ، حُرمة ظَهر أمه . هات الفرقلة .. واضرب يا ولد يا على . أنشأ الخفير يمارس تنفيذ العقوبة . ليست هناك قطعة فى جسده النحيل ، لم تضرب مثنى أو ثلاث أو رباع .

العقاب الأكبر هو ما نزل بقلبه ، ووقع على رأسه . ظل يُعانى من قسوة الضرب ، ووطأة الإحساس بالذنب . فى أثناء ذلك كانت هناك عاملة من اللاتى ينقلن البرتقال ، تتعمد أن تُلفت نظر الرجل الكبير ، رمت برتقالة فى حجره ، وهى تنظر إليه فى دلال مكشوف . العاملات يحملن البرتقال ويغنين :

يا برتقان يابو سُرة وحلفتْ ما آخدك على ضُرة
لامونى فيك وأنا حُرة وادلعْ يا رشيدى
على وش الميه
سيبْ شَعرى وامسك إيدى
على وشّ الميَّه

بدتْ له الفتاة اللعوب شقية .. شيقة . أمران لا يستطيع مقاومة إغرائهما : المال والجمال . الجمال كله جمال العذارى .. ومن أراد الشباب الدائم فعليه بالعذارى . يبدو أنها تعرف ما تريد منه ، كما يعرف هو ما يريد منها . تعالى يا بنت .. كأنما كانت تنتظر الإشارة ، فأتته شيقةً حواها شيِّق . جلستْ بين قدميه ، أخذت تقشِّر البرتقالة ذات السرة — بحذر ودلال . تعمدت أن تكشف عن جزء من ساقيها . بدأت تناوله فصا بفص ، بينما الخفير مازال يضرب الرجل الفقير ..(١)

---

(١) الثلاثاء — ٥ / ٥ / ١٩٩٢ .

القَمر .. و .. القَدر

مات القمر .. اغتالوه .. الكل بارك المأتم . الناس نصفان : نصفٌ شارك فى احتفال الذبح ، ونصفٌ سار فى كرنفال الجنازة . انطلقت الأعيرة النارية . الطبول تدق . الدفوف ترقص بين الكفوف . غاب صوتُ الناى الحزين وسط الصخب ... « يا عروستنا ياللوز مقشْر تعالى .. » أحس يوسف أن الحلم قد مات ، وأنه صار إنسانا آخر ، طُرد من الجنة . مثلما كان آدم يكون ولد آدم . إنه حزين .. مهموم .. محير .. ومع ذلك فإن قريته « ميت الغرق » تبدو على حالها ، كأن لم يحدث شيء .. أى شيء . يريد أن يصيح .. يصرخ .. ولكن لمن .. ؟! من يسمع صرخة المظلوم فى الأيام الصفراء ؟! كانت « سورة الكهف » آخر سورة راجعها قبل أن يتوجه إلى العريف الكفيف الشيخ عبد الرحمن . دخل دار العريف خائفًا يترقّب . مرَّ يوم ثقيل . انتهى كل شيء . زُفت الحمامةُ إلى الغراب . صاحت الذئاب . عوت الكلاب ، فى الأرض الخراب . « طالعة من بيت أبوها رايحة بيت الجيران .. » . اليوم موعد الاختبار الأخير . إنْ أتم حفظ القرآن الكريم فسوف يأخذ العريف نصفَ أردب من القمح ، وجلبابا من الدبلان الأبيض ، وعشوة

دسمة .. ظَفَر محمر ، وثريد بالثوم ، وأرز مفلفل ، وكوب من الشاى الساخن المضبوط . العريف يلبس فانلة ذات كم طويل ، وسروالاً تدلتْ منه تِكةٌ صوفية سوداء . لم يشعر العريف بقدومه . جلس ينتظره ، فقد خصص له — وحده — هذه العصرية . فى انتظار مجيئه بدأ يغنى بصوت مشروخ ، وهو يهتزُّ مع الإيقاع :

يازيـــن الأنبيـــا   يـا طـه يـا غـالى
مـديحك يـا هـادى   سهَّـرنى الليـالى
ياما نِـفسى أزورك   واتملَّـى بنـورك
واقـولَك يـا هـادى   يا هـادى انا حبّتـيك

* * *

صلوا على حضرة النبى ..

وكان زيدوا النبى صلاة .

اكتشف أبو يوسف فجأة — بعد أن صار ولده فتًى بين الشباب الرجولة — أن صوته جميل . لا يدرى يوسف نفسه هل هذه حقيقة أو أنها رؤيا أبٍ لابن . الأب فقير لم يعلم أحدا فى المدارس . يأمل أن يرى واحدًا من أبنائه يحقق شيئا .. تَعْبُرُبه الأسرة قناة الفقر . طلب من ولده ألا يذهب إلى الحقل ، وأن يتفرغ لحفظ القرآن الكريم . القرآن نور وكتاب مبين ، وسوف يملأ بيت على أمين خيرا وبركة . يتحقق الأمل وتصدق الرؤيا ، يوم يصبح ولده « الشيخ يوسف » ، ويلبس الجبة والعمامة ، ويقرأ فى

المآتم .. وفى المسجد .. وإنْ ضاق الحال فلا بأس من القراءة فى المقابر . كله خير .. وكله مكسب . مضى على الشاب فى هذه المهمة المقدسة حولان كاملان . اليوم موعد « الختمة » . لكن الموعد الذى ظل ينتظره هو وأبوه جاء بعد يوم نحس .. وليلة سوداء . حين فرغ الشيخ من الغناء ، تنحنح حتى يعلمه بوجوده . تربع أمامه وجهًا لوجه . أحس أن جدران الحجرة تتهاوى على رأسه . لاحظ عن قُرب أن أسنان العريف متآكلة ، وبدا له الفم مثل قبر مهجور . ابتسم العريف ابتسامة عريضة ، فظهرتْ تجاعيد وجهه ، وبدت لحيته مثل نبات الحلفا . قال وهو يهتزُّ طربًا : مرحبا يا شيخ يوسف ، اتلُ يا ولدى « سورة الكهف » . لم يكن من السهل عليه أن ينسى غياب القمر ، وضياع سحر . لم تكن مع العريف عصاه . لا يدرى كيف تصل يد الشيخ الضرير إلى كل من يتلعثم فى القراءة أو التسميع . إنه يضرب قائلا : « العصا لمن عَصَى .. يا ولد ». استعاذ بالله من الشيطان الرجيم ، وبدأ يتلو السورة الكريمة . عندما وصل إلى قوله تعالى : « من يهد الله فهو المهتد ، ومن يضلل فلن تجد له وليا مرشدا ». توقَّف برهة .. ثم تلعثم .. واضطرب لسانه أو فؤاده . لم تكن مع الشيخ عبد الرحمن عصاه .. لكن يده أشد تأثيرا من العصا . ابتسم الشيخ .. وهو يحرك أجفان عينيه الخالية من أى ضوء . قال : أكملْ يا ولد .. أكمل يا شيخ

يوسف . مازال العريف حسن الظن بتلميذه .. وما برح يُمنّى النفسَ بالجائزة ، بعد أن ينتهى من « الختمة » ، ويأذن له بالقراءة .. ويعترف بأنه أتم الحفظ وجوَّد التلاوة . لم يكن من السهل على يوسف أن ينسى ضياع الأمل ، ومغرب القمر . الحسرة .. مُرة فى العقل والقلب واللسان . كانتْ سحر تنسج له خيوط حلم عريض كبير أخضر . كانتْ عيونها المتلهفة شوقاً وعشقًا ، تقول لـه : سأنتظرك بشوق الأرض لقطرات الماء ، ولهفة الحياة للربيع بعد الشتاء ، وحنان أم لعودة وليدها بعد المساء . أفاق على صوت العريف : أكملْ يا يوسف حتى تصدق الرؤيا . لم يكن قادرا على أن يزيد حرفًا . واحدٌ من شباب الكتّاب سخر ذات مرة من العريف بعد أن أكل علقة ساخنة : نحن فى زمن أغبر .. الأعمى يُعلّم المبصرين .. !! أكملْ يا يوسف : « وتحسبهم أيقاظًا وهم رقود ، ونقلبهم ذات اليمين وذات الشمال .. » المرارة أوقفتْ لسانه .. وجففتْ حلقه . ضاعتْ سحر .. وغاب القمر .. غاب القمر .. فأين المستقر .؟! حاول .. وحاول .. لكن الله لم يفتح عليه . ختم الهمُّ على قلبه وعقله . نفِدَ صبرُ العريف .. لكنه مازال فى منزلة المابيْن .. مابيْن الرجاء والخيبة . طالت لحظة السكوت ، لكن العريف لم يفقد الأمل بعد : أكمل يا يوسف : « وتحسبهم أيقاظا وهم رقود ، ونقلبهم ذات اليمين وذات الشمال ، وكلبهم باسطٌ

ذراعيْه بالوصيد .. » لم يستطع أن ينطق . أُنسى كل شيء .. كل شيء . بدتْ حجرة الكتّاب مظلمة — رغم أن ضوء النهار مازال يطل من طاقة صغيرة فى أعلى الجدار . من مقعده رفع العريف ذراعيه ، وأخذ يضرب ، حيثما تصل ذراعاه .. على الوجه .. والصدر .. والكتف .. بل إن الرأس لم يسلم من الأذى . رغم ذلك .. لم يتحرك .. و لم يتوجع .. و لم يطلب الرحمة . بدتْ له سحر فى ملابس عرس بيضاء .. وكلاب سوداء .. تمزق ثيابها . صارت عريانة .. عريانة كما وُلدت . انكمشت .. بكت .. ارتعشت . حاولتْ أن تستر موضع العفة . الجراح فى داخله أشد قسوة من ضرب العريف . توقف العريف ، لأنه تعب من الضرب والسب . صاح : ماذا فعلتَ اليوم يا ولد ؟ قل .. لا تكذب .. إيَّاك . سكوتك هذا أمر غريب . لم أشاهدك بهذه الحالة من قبل . إما أنك نجس .. أو أصابك مسٌّ من الشيطان . لم ينطق الفتى .. و لم يَردّ . اذهبْ فاغتسل وتطهر .. إياك أن تستحم فى الترعة ، حتى لا تنجّسها على عباد الله . حاول أن يجمع أجزاءه المتفرقة وأشلاءه الممزقة . ودعه العريف بلكمة فى صدره . أحس أنه يغادر زنزانة صغيرة إلى سجن أوسع . خرج وضوء الشفق يصارع ظلام المساء . المساء سوف يأتى .. والظلام آتٍ لاريب فيه . فى الطريق إلى الدار مشى مشتت الذهن مقطع القلب . أحس أنه فأر مطارد .. تطارده

الكلاب السوداء .. التى اعتدت على سحر . اللعنة على الكلاب .. وأولاد الكلاب . هذا زمنٌ مُرٌّ .. لا تستطيع أن تفرق فيه بين البشر والكلاب . أحيانا رؤوس الكلاب على أجساد البشر .. وأحيانا رؤوس البشر على أجساد الكلاب . لم يعد أحد يسمع أو .. يقول . لم يعد هناك حب .. أو خيْر .. أو تفاهم . الفقير يقتله الحياء .. والغنىُّ يبتلع كل الأشياء . أحس يوسف أن هذه القرية ليست بلده .. وأنه غريب .. وحيد .. فقير . لم يعد أحد يفهم شيئا .. وإنْ فهم فلن يعرف .. وإن عرف فلن يقدر .. وإن قدر .. فلن يتمكن ، لأن الذئاب سوف تأكل عظمه قبل لحمه . تغيرت القرية يا يوسف وهذه هى النتيجة .. بل هذه هى المصيبة .. اغتالوا القمر .. واغتصبوا سحر .. وصدق الخبر .. وتحقق القدر . صاح فى أعماقه ، وهو يسير تائها فى شوارع القرية : يا رب يوسف .. انقذْ يوسف من الهم والغم والكرب العظيم.تمنى أن يأكله الذئب ، ويكون هو وسحر ضحية الكلاب والذئاب .

صلـــوا على حضرة النبـــى ..

وكمان زيـــدوا النبيـــى صلاة .

حين دخل الدار ــ دار العائلة .. التى تتسع لأب وأم وخمسة من الإخوة ــ أحس أنها تضيق .. وتضيق ، وصارت مثل جحر أرنب . تخيل شجرة التوت العتيقة أمام الفدان الوحيد الذى

يملكونه ، وقد انكسرت فروعها ، وتساقطت أوراقها ، كـأنها جذع نخلة خاوية . كانت الأم منحنية أمام طشت ـ المياه فيه ـ أسود من الملابس التى به . جلس أمامها فى ركن مظلم دون أن يتكلم أو يتحرك.لم تلتفت إليه : أنت تعرف مكان الأكل إن كنت تريد . لم يرد عليها ، فانشغلتْ بما هى فيه . اسودت الدنيا فى عينى يوسف ــ الابن الضال ، الذى عصف بحُلم أبيه ، وسخر بلحية شيخه ، وأذاب قلب أمه . تبادلا نظرات سريعة صامتة . لكن كلا منهما فى عالم آخر . الأم تريد أن تنتهى من الغسيل ، حتى تعد طعام العشاء قبل أن تحضر الأسرة من الحقل . أما هو فقد أحس أن قلبه ينزف دما . الدنيا تغيرت يا أمى .. لم تعد هذه بلدتنا . شىء ما ضاع .. لا ليس شيئا واحدا .. وإنما أشياء وأشياء . لم يعد أحد يفعل خيرا .. يقول حقا .. يتكلم صدقا . اغتالوا البراءة .. يوم اغتصبوا سحر . الناس ضلوا أو ضُللوا .. يا أمى . كانت تعرف أنه لم يتناولْ غداءه . جففت يديها فى جلبابها الملون المبتل . وضعت أمامه رغيفينْ وقطعة من جُبن المشّ ، وطبقا به بقايا من عسل أسود : كلْ ياحبة عينى . شعرت ــ بالفطرة والحنان ــ أن ولدها البكرى حزين . لم يقل شيئا ، وتحرجت ــ شفقة ــ أن تسأله . كان من المفترض أن تكون هذه لحظة فرح ، لأنه يتم ختمة القرآن اليوم . ماذا جرى لك ياكبد أمك ؟! ظنتْ أن العريف لم يعلن نجاحه ، لأنه غير متأكد من

أن الأب ، سوف يعطيه ماوعد . لعنت العريف فى سرها ، حين ظنت أنه سبب حزن ولدها .

صلـــوا على حضرة النبـــى ..
وكان زيـــدوا النبـــى صلاة .

لم تكن له رغبة فى الأكل ، لكنه تأمل قطعة الجبن على الرغيف ، فوجد الدود يمشى ويتحرك . أحس أنه مطارد بين الجُبن والدود .. والدود والجبن . أبوه حين ينتهى من الأكل يشكر الله ، قائلا : « اللهم أدمها نعمة واحفظها من الزوال » نعمة .. هذه نعمة يا أبى .. الجبن والدود نعمة ؟! وإنْ كان عسل .. فهـو أسود .. أسود .. وتقول نعمة ؟! اعتدنا الذل .. ورضينا بالجُبن والدود يا أبى .. وهذه هى النتيجة .. غاب القمر .. وضاعت سحر . حين تركته أمه ، وصعدت إلى السطح تنشر الغسيل ، أحس أنه المعذب الوحيد فى البلدة الظالِم أهلُها . أراد أن يشم هواء نقيا .. وأن يهرب إلى ظل شجرة التوت العتيقة ، التى شهدت أيام الحب .. والبراءة .. والشوق .. والعشق .. مع سحر .. ولسحر . بينما يسير فى الطريق .. لا يرى أحدا .. لا يكلم أحدا .. لا يحس بأحد .. ولا يكاد يحس به أحد ، كان الظلام — ظلام الليل — يغطى القرية شيئا فشيئا .. ويزحف فى هدوء نحو البيوت الفقيرة والنـاس الحزينة . تذكر الآية الكريمة التى ذكّره العريف بها « وتحسبهم أيقاظا وهم رقـود ، ونقـلّبهم ذات اليمين وذات الشمـال ، وكلبهم باسط ذراعيه بالوصيد . لو اطلعتَ عليهم لوليتَ

منهم فرارا ، ولمُلِئت منهم رعبا » . وصل إلى شط الترعة .. فرأى الماء فيها قليلا وراكدا .. أيام جفاف . الناس عائدون من الحقل ، وهو متوجه ناحيته . لم يكلم أحدا .. و لم يكلمه أحد . « وترى الناس سكارى وماهم بسكارى .. وترى الناس سكارى وماهم بسكارى .» تمنَّى أن تعود أيام الفيضان ـــ التى سمع عنها كثيرا من أبيه . كانت الترعة تمتلى بماء متدفق .. وتفيض المياه فى كل مكان . ماء الفيضان أحمر حىّ ساخن ، يُخصب الأرض الشراقى ، فتلد نباتا مختلفا ألوانه . أحس لسعة برد تدخل من خلال فتحات جلبابه الأبيض . وضع قدميه على بداية الطريق . تمنى أن تعود أيام الفيضان . وأن تغرق « ميت الغرق » .. أو أن ينزل الله المطر . طوفان أو مطر .. طوفان أو مطر .. يا ألله .. يا رب يوسف .. وربَّ كل المستضعفين . ذهبت أيام الطوفان .. ولكن الأمل مازال موجودا فى المطر . مطر .. مطر .. سوف ينزل المطر .. ويُشرق القمر .. ويُورق الزهر .. وينبت الثمر .. وتعود سحر . سوف تطرح شجرة التوت العريقة فى أرض والده .. توتة .. توتة وما فرغت الحدوتة ...

وصلـــوا على حضرة النبـــى ..
وكان زيـــدوا النبـــى صلاة .[1]

---

(١) الأربعاء ١ / ١ / ١٩٩٢ .

نُشرت فى جريـدة « الجمهوريــة » القاهـــرة ـــ العـــدد (١٤٠٥٩) فى ٢٥ / ٦ / ١٩٩٢ .

الغَ شيم .. و .. الحَ رِيم

مشى وراء الحمار ، لا يدرى أيهما أسعد حالا هو أو الحمار ، ولا يعرف ماذا يمكن أن يكون الفرق بينه وبين الحمار ؟ الحمار يحمل كل شىء ويسمع كل ما يقال . كذلك هو ، لا يعرف لسانه كلمة « لا » .. أو كلمة « نعم » فهو يسمع .. ويحاول أن يفهم ، وفى الغالب لا يتعب نفسه فى أىّ كلام يقال . إنه يعمل ما يقدر عليه ، وما يقدر عليه — دائما — يقع فى إطار عمل الحمير . اذهبْ إلى الغيط يا ولد يا عيسوى .. علّق الساقية .. نظف الزريبة .. احرسْ القطن .. نمْ فى جُرن القمح .. إلى غير ذلك من أوامر عمه إبراهيم أبو حسين . كان الوقت عصرا ، ونسمات الخريف الهادئة ، تداعب طرقات القرية الحزينة . تذكر عيسوى — مع أنه هو نفسه يعرف جيدا أن مخه مثل غربال قديم — أنه يفترق عن الحمار فى أمرٍ مهم جدا ، لا يتنازل عنه حتى لو خربت الدنيا ، بل حتى لو لم يكن فى جيب عمه مليم واحد . لابد أن يدخن كل ليلة ثلاث سجائر بلمونت ، ويشرب كوبا من الشاى المضبوط — فى فترة ما بعد العشاء . وتلك عادة — أو كما يقول عمه داءٌ لا يتنازل عنه مطلقا ، ولا يأخذ منه أىُّ إنسان حقا أو باطلا ، إلا إذا صلُح مزاجُه بممارسة

هذه العادة اللعينة . كان هو والحمار عائدين من الحقل . الحمار
يحمل حملاً من الحشائش الخضراء ، وعيسوى يمشى خلفه . يضعُ
عصا من التوت على كتفه ، يُمسكُ بها من الطرفين : اليد اليسرى من
خلفٍ واليمنى من أمام . يلبس قميصا وسروالاً من قماش الدمُّور ،
اتسخ لونهما من كثرة العمل ، وتمزقت أجزاء أخرى من طول
الاستعمال . الحمار هو الكائن الوحيد ، الذى يقضى معه معظم
أوقات حياته ، وهو الوحيد ــ أيضا ــ الذى يملك حق السيطرة
عليه ، وإصدار الأوامر إليه . صارت بينهما ألفة ومودة . أكثر من
هذا يشعر نحوه بعاطفة ، و لم يعد قادرا على ضربه أو تأخير الطعام
والشراب عنه . مقطوع من شجرة .. لا أب .. لا أم .. لا أخ ..
لا أخت ــ لا ــ لا أى شىء . تزداد شفقته عليه حين يذهب معه
إلى الترعة ، ويغسل جسده فى حنان ببعض أعوادٍ من قشّ الأرز .
هناك معالم خاصة تُميِّز القرية ، يعرفها المقيمون والراحلون ، مثل
الجامع والمدرسة وماكينة الطحين وسراية العمدة . و .. عيسوى .
كل أهل القرية يقولون له : « يا ولد يا عيسوى » مع أنه قارب
الثلاثين أو تجاوزها بقليل أو كثير . لا أحد يعرف عمره الحقيقى ،
حتى كبار السن . لكن الجميع متفقون على أنه ظاهرة .. أو
معجزة .. أو إنسان مبروك .. أو فيه شىءٌ لله . يُخيَّل لمن يراه أنه
غُلام صغير أو صبىٌّ كبير . طوله لا يزيد عن الحمار كثيرا . وجهه

قمحيٌّ أقرب إلى بياضٍ مشوب بحُمْرة محروقة من كثرة العمل ومواجهة الشمس . عيناه سوداوان تنظر كل واحدة منهما فى اتجاه مخالف . حاجباه كثيفان ، يلتقيان عند المنتصف كأنهما خط أسود سميك . أنفه قطعة لحم ناتئة ، كأن لا عظام فيها ، وفتحتا الأنف واسعتان ومرتفعتان قليلا ، بحيث يستطيع من ينظر إليه رؤية ما بداخلهما . فمه واسع يكاد يشغل نصف مساحة الوجه . شفتاه غليظتان ، يصعب عليه — مثل معظم البشر — أن يغلقهما ، تبدو داخلهما مجموعة متنافرة ومتباعدة من الأسنان والضروس الصفراء والسوداء . رأسه ليس له شكل معروف ، لكنه أقرب إلى شكل شبه المنحرف ، لأن عظامه — صغيرة من أمام وواسعة إلى حّدٍ ما من خلف . كما أن اتساع مساحة رأسة ، لا يتناسب مع ضمور الوجه وصغر الأذنيْن ، بالإضافة إلى أن حجم رأسه ، لا يتّسق مع جسمه ، الذى يبدو أقرب إلى النحافة والهزال ، مع أنه يأكل كثيًرا بشهادة عمه إبراهيم ، الذى يتندر عليه أحيانا بقوله : « الجسم جسم فار ، والأكل أكل حمار » . حين يمشى بهدوء وطمأنينة — كما هى عادته فى معظم الأحوال — يهيأ لمن يراه أنه يحجل ، أو يعرج عرجًا خفيفا . السرفى هذا أن رجله اليسرى عادية ، لكن اليمنى تميل قليلا جهة اليمين ، وتحدفُ ناحيةَ الخارج . وقد ساعد على ظهور ذلك بوضوح ، أنه لا يلبس الحذاء إلا صباح اليوم الأول من العيد . يملك

حذاء أجرب — لا يعرف منذ متى امتلكه .. ولا من الذى أعطاه له . عندما يضعه فى قدميْه ، يحسُّ أنه عاجز عن الحركة . سرعان ما يخلعه ، ويقذف به فى قاعة علف البهائم ، التى هى — فى الوقت نفسه — مكان نومه ومقرُّ حاجاته . هذه الهيئة العجيبة — بالإضافة إلى ظروف حياته البائسة — جعلتْ أهلَ القرية جميعا ، يعاملونه معاملةً خاصة . وصار طبيعيا أن تراه فى أىّ بيت .. فى أىّ وقت . ولا يحس نحوه أىُّ إنسان بشعورٍ مريب أو غريب ، فزوجُ أحلى امرأة ، أو أبُ أجمل فتاة ، لو رآه جالسًا عنده ما قال شيئا قط ، بل ربما أخذ ما جاء من أجله ، وخرج تاركا إياه قاعدا فى الدار ، كأنه واحد من البيت ، وطلب من أهله أن يقدموا له الطعام ، أو يصنعــوا الشاى . أكثرُ من ذلك أن بنات القرية أصبحْنَ يتفاءلنَ به ، فكل فتاة يراها ، يقولِ لها : أريد أن أتزوجك ، فتطلب منه أن يحضر لها « ريالاً » من الفضّة . قبل أن يجمع عيسوى قروشه ، التى تكون « الريال » ، تكون الفتاة قد جاءها ابن الحلال ، وُزفّتْ أو خُطبتْ على الأقل . عُرِفَ عنه ذلك .. وصار عيسوى فألَ خيرٍ على كل من يطلب يدها !.لا يستطيع عقله المحدودُ أنْ يفهم لماذا يقسو عليه عمّه قسوة شديدة ، ولم يسميه « الغشيم »،بينما أهل القرية يحبُّونــه ، ويبالغون فى إكرامه والعطف عليه ؟! انفتح البابُ على مصراعيْه ، ودخل الغشيمُ حظيرةَ الحريم . كانت أمُّ كل فتاة ، ترغب فى أن

يزورهم ، أملاً فى أن يأتى الخُطَّاب لابنتها . الفتيات ، بل النساء كلهن فى نظر عيسوى جميلات ، لأنه صاحب فلسفة خاصة بالنسبة لعالم الحريم ، فهو يرى أن كل امرأة لها طعمٌ خاص ، وأن الله — لحكمةٍ لا يعلمها سواه — وزَّع الأرزاق على جميع البشر ، ومنح كل امرأة موهبةً خاصة ، لا يعرفها إلا من يكتشف أسرارها . النسوة ولا سيما العذارى — يرَوْنه مخلوقا محايدا .. لا خوف منه ، بل إنه إنسان « مبروك » يجلبُ الحظ . أما هو فقد بدأت تتحرك فى داخله مشاعر ، كانت حبيسة وغائبة عن وعيه تماما . مع الليالى الباردة .. والأيام الجافة ، بدأ الظل يتحرك والبرعم ينمو . حين يتربعُ أمام واحدة من جنس الحريم ، يحلقُ بكلتا عينيْه المتباعدتيْن ، محاولاً أن يُغذّى روحَه بعبير الفاكهة المحرَّمة . وهو فى حَضرة النساء يحاول أن يرى .. يسمع .. يتأمل .. وربما حاول أن يفهم . لم يكن يهمه أىُّ شىء فى تلك اللحظة المقدسة . كان يغيب عن الوجود كله . يكاد لا يسمع من يناديه .. أو يتحدث إليه ، فيرد بإشارات غير مفهومة ، وابتسامات لا تعنى بالنسبة له — على الأقل شيئا . يحسُّ فى حضرة الجمال مشاعرَ ، لا يعرف لها اسما أوْسرا .. مثلما يحدث له حين يصلى أحيانا فى بعض ليالى شهر رمضان الكريم . لا يدرى من الذى قال له .. وفى أية مناسبة : إن الله جميلٌ .. يحبُّ الجمال ! . وقد أغراه على ممارسة طقوسه العاطفية أن معظم نساء القرية وبناتها يعاملنه

باعتباره — كما يقول عمه — « غشيما » . يندر أن تتحجب أو تحتشم أمامه امرأة أو فتاة . أحيانا تجلس معه أو تتحرك أمامه بعض النسوة بقميص شَفّافٍ هفّافٍ ، يُبدى من أجزاء الجسد أكثر مما يُغطى . هنالك يصل المريدُ إلى مقام الرضا .. وحالة الوجـد ، فيتفصّدُ جبينه عرقًا ، ويغيب عن الوعى ، كأنما هو حاضر غائب فى ذات اللحظة ، عندئذٍ يتمنّى أن يسافر إلى البلاد المحجوبة ، التى يراها معظم الناس قريبة .. ويراها هو بعينىْ روحه بعيدة .. بعيدة جدا على غشيم فقير مثله . فيصيحُ من أعماق قلبه ، مُناجيا ربه : « يا رب يا متجلى ، ارحمْ ذلّى .. » هذه الحالة تُراوده فى حضرة النساء .. وفى المنام .. وفى اليقظة .. وعندما يكون فى الحقل . أحيانا يسير مع الحمار .. فيتغنى فرحا دون أن يفكر فى الطريق ، لأن الحمار — ربما أكثر منه — يعرفُ الطريق من البيت وإليه . حين يغنى يصدر صوتا غريبا ، يخرج من حلق مجروح ، وعندما تستبدُّ به حالة الغِناء لا يكلم أحدا .. ولا يهتم حين يكلمه أحد .

عَجَبِـى على بِـنْت بـيضا واسْمهـا سعديّـــه
رسَم على كـــعْبها عَسْكَـــرْ بدوْريّه
اللّـــى معـــاه المَـــالْ يفـــرحْ بسعديـــه
واللى مامعـــاشِ مَـــالْ يموتْ بِـــلا دِيَّـــه
يموتْ قتيِـــل المحبَّـــة .. والسَّبَبْ سعديـــه

عيسوى ماتَ أبوه وهو فى بطن أمه ، ثم تزوجت الأم بعد مولده بأشهر معدودات فى بلدة بعيدة غريبة . نشأ دون أن يعرف عنها شيئا واضحا ، ولم تكن هى أيضا تعرف عنه شيئا . أكثر من هذا أنه لا يستطيع أن يتخيل لها صورة ــ رغم كثرة من يعرف من النساء ــ لأنه لم يرضع حنانها ، فقد تركته كومة لحم مهملة ، وهاجرتْ أو هربتْ ــ الله وحده يعلم . أُصيب ــ وهو فى المهد صبيًّا ــ بأمراضٍ لا يحصى عددها إلا الله . تكاسل العم ــ عامدا فيما يبدو ــ عن علاجه . لكن الله القادر شفاه ونجَّاه ، حتى عندما ظن عمه نفسه أن روحه قد بلغتْ الحلقوم . غير أن الأمراض الكثيرة لم تُغادر جسده بسلام أو إلى أبد الآبدين .. فما زال لكلٍ منها أثر خفىٌّ أو ظاهر فى جسده وعقله وروحه . المرضُ الذى لم يستطع عيسوى نفسه أن يُشفى منه ، هو داءُ الحرمان . حين بلغه خبر وفاة الأم ، كان فرحُه الداخلى أعمقَ من حزنه الظاهرى عليها . متى حدث ذلك .. ؟ لا يدرى .. ولا يهمه أن يدرى . المهم أن موتها أراحه من سبِّ عمه لها ، لأنه دائم السخط عليها . كلما رآه تعمد أن يسبها .. أو يُعيِّره بها . الهم الكبير والوحيد فى حياته ، هو العم إبراهيم أبو حسين ، الذى ربّاه بعد زواج أمه طمعا فى الفدان الذى ورثه .. وفى نصف الدار ، التى صارتْ ملكاً له بعد وفاة أبيه وأمه . ذاق من عمه كل أشكال الإهانة . تحمل منه أكثر مما يتحمل البهيم . صار مجرد ذكر

اسمه يُصيبه بالخوف والرعب . كم تبوَّل على نفسه وهو صغير ، لأنه كان يخشى أن يخرج من القاعة فيلقاه عمه ، ويضربه — فى الليل — دون سبب . تحمل الجوع .. وآلام المرض دون أن يقدر على الشكوى خوفًا من العقاب والإهانة . كلما كبر عمره تضخَّمتْ فى أعماقه صورةُ عمه المرعبة المخيفة ، فكان يسمع .. دون أن يحاول — ولو مرة واحدة — أن يفكّر فيما يقال . هذا الخوف الأسود جعل عيسوى مخلوقا غريباً ، وأصبحتْ سيرته أشبهَ بعالم الأساطير . ليست هناك رواية واحدة مُؤكدة ، فيما يتصل بأىّ حدث من أحداث حياته . بل إن عيسوى نفسه لو سألته عن خبر من أخباره ، ثم أَعدتَ السؤال عليه مرة أخرى ، فسوف يجيبك إجابة مختلفة تماماً ، عما قاله لك من قبل . صارتْ أخباره مادة للتسلية والترفيه . لكن أهل القرية — رغم ما يُقال أو يُضحك عن عيسوى — يعاملونه معاملة طيبة ، ويحسنون إليه إحسانا زائدا فى كافة المناسبات السعيدة والحزينة ، بل إن من يُسىء إليه أية إساءة سرعان ما يحاول أن يسترضيه خشية أن يعاقبه الله ، لأنه آذى واحدًا من عباده الصالحين . حين وصل إلى الدار ربط الحمار ، ووضع له وللجاموسة كمية من التبن والحشائش الخضراء . الغذاء ضرورى فى هذه اللحظة للجاموسة ، حتى يكثر اللبن فى الضرع عند الحلب بعد صلاة العشاء . توجه دون أن يُبالى بأسئلة زوجة العم إلى الترعة . شرع

يغتسل كما يفعل ليلة العيد السعيد . غطس حتى وصل إلى القاع ، عاد بقطعة من الطين ، أخذ يدلّك بها جسده ، كى ينظفه من الأوساخ والعرق . لمست يده دون وعى أو قصد — عصفوره الصغير ، الذى لم يطر طوال عمره إلى أية بلدة من بلاد الدنيا الجميلة ، فأحس نشوة مبهمة لا يعرف لها سِرًّا أو مصدرا ، لأن هناك أمورا كثيرة يشعر بها أحيانا ، لكنه لا يتعب نفسه فيما لا يعرف .. ولا يفهم . عاد إلى البيت ، فغيّر ملابسه بأخرى نظيفة ، وآثار المياه لا تزال عالقة بشعره المتجعد . طلب العشاء مبكرًا — دون أن يهتم بانتظار عودة عمه . حين وضعتْ له زوجته حزمةَ فجل ، مع طبق من الأرز والبطاطس ، أخذ الحزمة ورماها بعيدا ، حتى وصلت إلى طوالة الحمار ، قائلا : هذه ليلة لا يصلح فيها الفجل . ماذا تقول يا عيسوى ؟ تساءلتْ زوجة العم ، وهى منهمكة فى تجهيز العشاء . أين حقّى فى اللحم ؟ . أنت تعرف جيدا ، اللحم لا يُؤكل إلا عندما يأتى عمك . أجابتْ — باختصار .. دون أن تنظر إليه — وهى مائلة على الكانون ، فبرزتْ مؤخرتُها عاليةً ، كأنما يراها — هكذا — أول مرة . تأملها فى ثوب فضفاض ، به نقوش زاهية . حاول أن يفهم سِرا ، لا يزال غامضا عليه . لماذا تتزين زوجة عمه — على غير العادة — حين يكون العشاءُ لحما أوْ ظفرًا أوْ سمكا .. و لم يدخل العم حجرة النوم مبكرا فى نفس تلك الليلة ؟!. لن يخذله الله ..

سوف يصل قريبا ، ويُكشفُ الحجابُ ، ويُفتح البابُ . من سلك درب السعادة وصل . وقد تشققتْ قدماه .. وزهقتْ روحه .. واستبدَّ به الشوق . يارب يا متجلى ، ارحم ذلى .. !! الليلة طلبتْ منه أمُّ جمالات أن يزورهم وألحّتْ فى الطلب ، كأنما حضوره رهن بوقوع حَدثٍ عظيم . وافق بشرط أن توافق على أن يخطب ابنتها . أبدتْ عندما حضر سرورًا وارتياحا ، فليستْ لدى الأم فرحة أكبر من فرحة زواج البنت . جمالات أبوها عامل زراعى ، لا يملك قيراطا واحدا ، وهو يملك فدانا كاملا أربعة وعشرين قيراطا . لن يرفض صالح أبوها طلبه من أجل الفدان .. ومن أجل أنه من عائلة أبو حسين . جمالات بنت حلوة قوى .. قوى ، بيضاء مثل القشدة . يسميها بعضُ المعجبين « جمالات نايلون .» الليلة يكلم أباها .. كما كلم أمها ، حتى يعرف — مثل عمه — فائدة أكل اللحم .. والنوم المبكر . ذهب إلى الدكان الذى يتعامل معه العم ، وأخذ ثلاث سجائر بلمونت ، وطلب من البقال أن يعطيه علبة فازغة . سار منتشيا فى جلباب العيد ، وعلبة السجائر بارزة فوق صدره ، والحذاء الأجرب فى قدميْه يقوده — بطيئا — نحو دار جمالات . الزواج سنة عن الله ورسوله ، ويجوز للمسلم أن يتزوج مرة .. أو مرتين .. أو ثلاثا .. أو أربعا — كما قال الشيخ عمران إمام المسجد . هذا ما أعجبه من كلام الشيخ ، رغم أنه لا يعرف معنى محددًا..

لكلمة الله .. أورسوله .. أو لأحاديث الشيخ الكثيرة . شيئا .. فشيئا بدأ يرى أن الإيمان ضرورة ، وأن الله موجود ، وأن الرسول نبىٌّ عظيم ، وأن الشيخ رجل طاهر .. طالما أن كل ذلك سوف يوصله إلى الطريق ، طريق الوصل والوصال والوصول — طريق جمالات ، التى هى نايلون خالص . كم كان سعيدا قبل أن يستبدل عمه الحمار بالحمارة ، وقتها كانتْ المودة بينه وبينها أقوى من أىّ شعور يحسه نحو الحمار اليوم — رغم أنه أصبح عزّيزا لديه ، وغاليا عنده ، لأنه الكائن الوحيد فى هذه الدنيا الواسعة العريضة ، الذى يكلمه ويستمع إليه . صحيح أنه لا يرد عليه ، ولا يتكلم معه ، لكن .. يكفى أنه يستمع إلى كل ما يريد .. كل ما يريد أن يقوله . سمع كلاما كثيرا يُقال ظلما وافتراء عن الحمير . الحمار مخلوق طيب .. مطيع .. أمين .. حمول .. لا يغضب .. لا ينتقم ، وهو أرخص الحيوانات تكلفة وأنظفهم روثا . الدنيا كانت تخسر كثيرًا لو لم يوجد فيها حمير ، هذا ما صار يعتقده بسبب طول المعاشرة . تذكر — فجأةً — أنه خرج قبل أن يحلب الجاموسة . إنه لا يشرب اللبن ، ولا يأكل القشدة .. لكن هذه إحدى وظائفه اليومية الثابتة . خشى أن يثور عليه العم إبراهيم . ظن بعد برهة أن عمه قد ينسى ، بعد أن يأكل ورك الدجاجة .

صحيح .. الدهن فى العتاق . دخل دار جمالات مختالاً ، كما دخل أبو زيد بلاد تونس . طرد دخان سيجارة البلمونت من فمه .. يا أرض اشتدّى ، ما عليك قدّى ..!! الدار نظيفة ومرتبة . لمبة الجاز الكبيرة تُضىء الصالة . أدرك بفتحتَى منخاره الواسعتَيْن أن أم جمالات طبختْ ظفرا . هذه رائحة بط على وجه التحديد . البط له نكهة خاصة .. جميلة . تمنى أن يأكل — وحده — بطة كاملة . مدّكم جلبابه بحركة لا شعورية ليمسح ما على شفتيه من دهن بطة ، يتمنى أن يأكلها . قطع تأملاته دخول جمالات ، تلبس فستانا جميلا. مشطت شعرها فى أناقة . ظهرتْ ضفائر شعرها : واحدة من خلف وأخرى من قدام . مفرِق شعرها الأبيض خيط من النور وسط ظلام حالك ، يلمع بدهانٍ لا يعرف له اسما . وجه بدرى يشع صفاء ونورا . قوامها متناسق فى غير امتلاء أو ضعف ، بينما برزت — كطبقٍ من الصينى — ساقاها المرتويتان . جمالات .. جمالات نايلون فى نايلون .. نايلون خالص يا جمالات . مدت يدها مبتسمة : مساء الخير ياسى عيسوى . أول مرة فى حياته يقول له إنسان « ياسى عيسوى ». تفاءل خيرا ، وآطمأن قلبه . انفتحتْ طاقة القدر يا عيسوى . صبرت ونلت . هذه عروسك الجميلة تقدم واجبات الاحترام ، وتقول : مساء الخير ياسى عيسوى. ازداد تفاؤلا ورضا وثقة ، حين جلست أمامه وجها لوجه . كما يغنى المريد فى رحلة

البحث عن سر الوجود . تاه وسط ضوء وجه الحبيب . لم يعد قادرا .. على أن يقول شيئا .. أو يسمع شيئا . تأمل جمالها الفاتن ، وهو يبدى نظرة شاردة وبسمة بلهاء . متى يستطيع أن يكمل ريال الفضة ؟ . أعادته الأم إلى عالم البشر ، وهى تقول فى مودّة : أعمل لك الشاى ياسى عيسوى أم تنتظر عمك صالح ؟ أنتظرْ . قالت وهى تمضى نحو الداخل : أمير والله يا عيسوى . انتظرْ أحسن ، لأن عمك صالح سوف يأتى معه ضيوف بعد صلاة العشاء.لم يكن يهمه مجىء عمه صالح .. أو ضيوفه .. أو حتى صلاة العشاء . المهم أنه يجلس وحده مع جمالات . تدارى خجلها أو قلقها ، وهى ممسكة بضفيرة شعر ، تعيد ترتيب أطرافها . ماذا تصنع بجمالات عندما تتزوجها ؟ . سوف أكتب لها الفدان ، ويكون ملكًا لها : بيعا وشراءً ، ثم أطالب بميراث أبى فى الدار ، حتى تكون لنا — أنا وهى .. وحدنا — دار .. دار فيها بط وأوز ودجاج . سوف أترك لعمى الجاموسة وآخذ الحمار . من لا يحافظ على قديمه ، لا يحافظ على جديده . أفاق من شطحاته على ضربة حنون من يدها اليمنى الناعمة على رجله اليسرى : لم أنت ساكت ؟ قل شيئا يا رجل ، هذه ليلة سعيدة . أنا فرحة جدا ، لأنك جئت . قدم الخير والله ياسى عيسوى . امتدتْ وتطاولت خيوط الأمل من الأرض حتى أعالى السماء.بالقمر يجلس أمامه وجها لوجه . أحس أنه يغنى فى دائرة ضوء

القمر . لم يستطع أن يقول شيئا . الصمتُ أفضل عبادة .. أو خير تعبير عن العجز ! . اكتفى بأن يركز بصره الأحول فى تأمل جمالها الفاتن . كان هو وهى — مثل عينيه — كلا منهما فى اتجاه مختلف تماما عن الآخر . طرق صالح الباب . دخل أولا : يارب يا ساتر . فرحت جمالات . ظهر الدم الأحمر فى وجنتيْها . جرت مسرعة إلى حيث توجد أمها . بعد أن دخل أبوها ومن معه ، عادتْ .. كأنما لم تكن موجودة منذ لحظة . سلمت على الشيخ عمران وقبّلتْ يده فى حياء ، ثم سلمت على عمها حامد أبو أحمد ، وقبلت يده مرحبة . ثم سلمت فى مودة وخجل على ابنه فؤاد . شىء ما عكر صفو مزاج عيسوى . عندما جاء الرجال الأربعة بدءوا يثرثرون فى أحاديث عامة قطعا للوقت . كائن غريب نسيه الجميع أثناء كلامهم .. إنه عيسوى الغشيم . لم يستطع خياله المنكمش أن يفهم — سريعاً — حقيقة ما يدور أمامه . هناك خاطرٌ حزين يلح على فكر الشيخ عمران كلما رأى عيسوى ، لأنه واحد من القلائل الذين شهدوا الموقف . ليس صحيحا أن أم عيسوى تخلّتْ عن وليدها بعد وفاة زوجها عبد الفتاح ، لكنها هربتْ وفرّتْ من مطاردة أخيه إبراهيم ، الذى أراد أن يرث زوجة أخيه ، كما ورث أرضه وداره . رفضتْ ذلك بإصرار . لم تكن تُطيقه أوْ تحترمه . فضّلتْ أن تعيش فى بلدة غريبة ، حتى لا ترى وجه الشرير الطماع . عاقبها على ذلك برفضه أن تحمل الوليد

معها . قال مهددًا : من حقك أن تتزوجى بشرط أن تتركى الطفل . من العيب .. والعار أن يُربّى ولدنا بعيدًا عن أهله . استسلمتْ ودموعها تجرى ، وعيونها الحزينة تقول : هل مثلك يعرف العيبَ والعار يا إبراهيم ؟ . الذين استحـوا .. ماتـوا .. ! عـاقب الأم المسكينة ــ التى كان لا يتحمل مجرد ذكر اسمها ــ بأن حال بينها وبين الوليد . أهمل الطفل ، وإذا أصيب بمرض تكاسل فى علاجه . كما لم يحرص على غذائه وكسائه ، مثلما يفعل مع أولاده . أكثر من ذلك كان يحول بين الأم وطفلها كلما حاولت رؤيته ، عندما يبلغها خبرٌ عن مرضه . أُصيب عيسوى بسبب كل ذلك بمجموعة من الأمراض الجسدية والعلل النفسية ، لا يعرفها إلا علاَّم الغيوب . حين تذكر الشيخ عمران هذه الأحداث الحزينة ، قال فى نفسه : اللهـم لا أسالك رد القضاء ، لكن أسالك اللطف فيه . بعد فترة من الصمت المّر ، لا يعرف عيسوى مداها .. بعـ .. بع .. بعد .. هـ .. هذا .. شيْ .. شيئ .. شيئا .. فشيْ فشيئا ، بدأ الموقف يتضح بمنتهى السهولة ، بينما بدا وقعُه على قلبه الحزين غايةً فى الصعوبة . جمالات التى ظن منذ لحظة أنه خطيبها ، تعدُّ نفسها لتكون خطيبة لفؤاد بن حامد أبو أحمد . مادامتْ الحكاية هكذا ، فلم أصّرت أمها ــ بنت الكلب ــ على أن يحضر .. ولماذا جعلتْ له البحر طحينة ؟!أم جمالات ضحكت علىَّ.يا شيخ عمران تقول إن الله

عادل ، فأين عدله .. ؟ ماذا فعلت فى هذه الدنيا حتى ألقى كل ما لقيته ؟ . كل إنسان له آمال وأطماع ، وأنا الفقير المسكين المبتلى ، ليس لى إلا أمل واحد .. امرأة .. امرأة ، أية امرأة .. تحمل همّى وتغسل أوجاعى . يا ألله .. يارب الكون .. لماذا كل فتاة أخطبها يخطفها غيرى ؟! . يا ألله يا رب الفقراء والضعفاء لماذا أعطيتنى الرغبة وحرمتنى القدرة ؟! حاول فكره المتعب أن يجمّع خيوط مأساة ، بدت له مثل طوفان عارم . تعجب من أمره وساءل نفسه : كيف أكون قدم السعد على غيرى ، ومصدر نحسٍ على ذاتى ؟!. هل هذا هو العدل .. هذه الحياة ..؟! أيقظه صالح من شطحاته : بسم الله يا عيسوى .. تعشَّ معنا . بدرت منه التفاتة إلى صينية واسعة ، مُلئت بأطباقٍ مختلفة ، فى وسطها بطة محمرة فوق طبق من الأرز . لم تعد تغريه رائحة الطعام أو منظر البطة . أحس .. بطيئا .. بطيئا .. بطيئا أن مقطفا من روث البهائم ، ودلوًا من بول الحمير ، يصبّان فوق رأسه المضطرب . لا مكانَ لحزينٍ فى دار فرح . قام على استحياء فى العينين دموع متحجرة . مضى ناحية الباب . أخذ الشيخ عمران ينادى عليه .. ويطلب منه مشاركتهم فى الأكل ، حتى تحل البركة . طيَّب صالح خاطره ، وطلب منه ألا يلح عليه ، لأنه قد يستحى .. وأم جمالات أكيد حاسبة حسابه . مشى — فى الظلام — منكسرًا ، لا يعرف لنفسه ملجأ أو مأوى . مشى تائها عبر طرقات القرية . لفَّ

الحوارى والشوارع مراتٍ ومرات بحثًا عن دار عمه ، كأنما انشقت الأرض وابتلعتها . شيء ما حدث له .. أو للقرية . لا يعرف .. لا يدرى .. لا يفهم شيئا . عجزتْ قدماه عن السير ، كما عجز عقله بطيء الفهم عن التفكير . مر أمام مخيلته الكسيحة طيفُ أمه ، فأحس بردًا وسلاما ، وأمانا وطمأنينة . الأم سفينة النجاة عندما تضطرب الأمواج ، وتُغلق كل الموانى . تعالى .. تعالى يا أمى .. أنا محتاج لك . لا يدرى كيف خرجت من أعماقه هذه الاستغاثة .. ؟! . عند ذلك فقط فتح عينيه فوجد نفسه أمام دار عمه . تمنّى أن تكون أمه مازالتْ على قيد الحياة ، حتى يرتمى فى أحضانها ، ويشكو إليها هوانه وذلَّه على الناس . فتح الباب بهدوء . كانت زوجةُ عمه عائدة من بيت الراحة فى قميص من الستان الأحمر الناعم . توهَّم للحظة أن طيف أمه قد تجسَّد أمامه . ألقى بنفسه مرة واحدة فى أحضانها ، وقال باكيا : حبيبتى .. حبيبتى يا أمى . ذُعرتْ المرأة .. وصاحتْ : ماذا جرى لك يا بهيم ؟.. الحقنى يا إبراهيم . خرج مسرعا وهو يكمل ارتداء سرواله . أبعده عنها ، وهو يضربه .. ويسبه : ماذا تفعل يا ابن اللبؤة ..؟ أين كنت يا غشيم ؟ انهال عليه ضربًا باليد .. ورفسًا بالرجل ، وسبا بكل ما يسعفه قاموسه القذر .. أحسَّ أنه صرصار تحت قدم ثور . ليستْ هذه أول مرة يُضرب .. ويُسب فيها . لكن الليلة .. الليلة هذه ،

كانت نحسًا من البداية إلى النهاية . لم يكن بكاؤه من أجل قسوة عمه . السرّ الحقيقى فى بكائه أنه تمنى أمًّا فى لحظة فلم يجدها . حنان الأم العلاج الشافى لمثل حالته .. لكن أين هى أمه .. ؟! سمع كثيرا عن الشيطان الرجيم . لا يستطيع أن يتصوره إلا على هيئة عمه .. الذى قتل فيه كل شيء عمْدًا مع سبق الإصرار . يا شيخ عمران هل إبراهيم عمى بحق وحقيق ؟!. كيف يرضع أخوان من ثدى واحد ، ويكون بينهما كل هذا العداء ؟. تقول إن الله عادل يا شيخ .. فأين .. أين هو عدله ؟! . ظل العم يضربه إلى أن تعب من الضرب ، وصاح فيه قائلا : ابعدْ عن وجهى يا غشيم وإلا قتلتك . حين سمع هذا التهديد ارتعد .. وخاف . أيقظ الألم الجديد جروحا قديمة لم تشف حتى اليوم . بدا له طيف أمه مرة أخرى ، فأدرك أنه تجرأ على الله فى ملكوته ، وعلى الشيخ فى مقامه ، وعلى الأم فى مرقدها . حاول أن يرفع يده ، كى يضرب عمه ، لكن قواه لم تساعده . كائن عاجز .. أحس أن عظام جسده مفككة .. ومفاصله سائبة . لكن طيف الأم أعاد إليه الأمل .. وأضاء له الطريق . غدًا يسترد شجاعته ويطالب بكل حقوقه ، ويعيش وحده .. بعيدًا عن قهر عمه الطاغية . عندما وصل إلى طوالة الحمار ، احتضنه باكيا ، وهو يقول : ليس لى فى هذه الدنيا سواك .!![1]

---

(١) مدينة الخرطوم — الثلاثاء ١ / ١٠ / ١٩٩١ .

العِشْق .. و .. العَطَش

فراغ .. فراغ .. فراغ عاصف .. يعرّيه .. يلتف حوله .. يتوقف .. يتوقف .. يتوقف فى منتصف الوقت .. يدرى أنه لا يدرى .. لا يدرى .. لا يدرى هل هو عريان .. أو لا بس .. ؟! الإحساس بالعُرى .. يحتويه .. يعريه .. يطارده .. يطـارده .. يطارده فى كل ناحية .. ومن كل اتجاه .. وفى كل لحظة .. !! تداخلت المسافات .. والأوقات . كان العرى يذكـره بـالشوق والعشق .. أما الآن فقد صار يذكّره بالخيبة والحسرة . لم يعد قادرا حتى على ابتلاع ريقه الذى جفّ . الجفاف ليس فى الفم المر وحده . أن تريد .. لكنْ لا تقدر .. إحساس مدمر .. يلتف حول العنق .. العجز والغيظ . إبراهيم الدنف .. يدرى أنه لا يدرى سبب وقوعه فى ذلك الاختبار الصعب . كانت الصدمة .. مدهشة .. انشطرتْ روحه .. وانهدَّ حيله . رجل مع إيقاف التنفيذ . يسير فى الحقل مع غروب الشمس .. وموت الضياء .. وصمت المساء . رعشة عاصفة تهز جسده من الرأس إلى القدم . تأمل أعواد الذرة الخضراء .. وقد كبرت لدرجة أنها تغطى قامة كل من يسير بجوارها . الخريف .. والمساء .. ونبات الذرة . الهواء منعش .. الهواء يحتضن أعواد الذرة

فى حنان أعْواد الذرة تفتح أحضانها للهواء .. وتبتسمُ فى دلال .. « تهيأتُ لك .. !! » . نبات الذرة يذكره بالصبايا . نبات الذرة ينمو — مثمرا .. جميلا .. مرتوى الساق .. فى سرعة وخفة . كوز الذرة يفتّق الغلاف الأخضر ، وتبدو مقدمته البيضاء فى تيه ودلال .. فوق صدر عذراء حسناء .. عذبة الريق .. طازجة القدّ .. ناعمة الملمس . تلفت إبراهيم الدنف إلى الناحية الأخرى من الطريق . حقول القطن سوداء كالحة .. جُمع منها القطن الأبيض .. صارتْ عريانه .. إنه عرى سقيم .. يُوحى بالعجز والضعف .. والذبول .. والفناء . أعواد القطن سوداء .. تبدو متوحشة مثل نبات الحلفا .. برزت منها فروع .. نافرة .. حادة .. جافة . الجفاف .. نهاية المطاف .. كل المياه تتبخر .. تتناثر .. تطير مع الدخان .. حتى ماء الحياة .. يجف .. تتوقف دورة الحياة . يدرى .. أنه لا يدرى كيف انتهى من جولته فى الحقل . أبوه عبد الكريم كان ينصحه كثيرا .. وكانت إحدى وصاياه .. « الأرض تفرح وتزغرد .. وتتباهى أمام جاراتها حين يزورها صاحبها . الأرض مثل الدار يجب أن تُدخل كل يوم . !! » أسند ظهره إلى شجرة توت عتيقة .. قديمة .. عجوز . لا يعرف كم عمرها الحقيقى . منذ كان طفلا يلهو .. يلعب .. وهى فى هذا المكان .. على ذلك الحال . لم تعد تثمر .. صارت عقيما .. لكنها تتمسك

بالحياة .. وما زالتْ على حالها عند الدوار . طلب ذات مرة من أبيه عبد الكريم الدنف أن يقطعها .. ويزرع غيرها ، لكنه رفض بحزم وحسم . هذه الشجرة عزيزة على أبيه .. وبالتالى صارت عزيزة عند كل الأسرة ، وإن كان يدرى أنه لا يدرى سرّ اعتزاز عائلته بها . !! عند هذه الشجرة بعيْنها .. وعند ذلك الدوار .. كان يلعب مع أمثاله من الأطفال . كل الأطفال بنين وبنات كانوا يلعبون فى هذا المكان معا . كانوا يلعبون ألعابا كثيرة . وكان إبراهيم يجاريهم فى بعض منها ، لكنه لم يستطع أن يجاريهم فى لعبة « عريس وعروسة » . كانوا يلعبون لعبة .. والذى يفوز .. يختار عروسته .. يأخذها .. يدخل الدوار .. يغلق الباب .. بقية الأطفال يغنون أغانى الأفراح :

ـــ يا ليلة بيضة الليلــة دى
= يا ليلة بيضة الليلــة دى
ـــ لا فْرحْ واكيد الأعـادى
= يا ليلة بيضة الليلـة دى
ـــ ليلـة بيضةوليلـة نـــور
= دا العـروسة زى البنـور
ـــ والعريس ويا العــروسة
= ليلـة بيضة وليلـة نـور

أحس ذات ليلة أن أمه تتوجّع .. لكن كيف تتألم فى مثل هذه

الساعة المتأخرة من الليل . كانتْ وحدها مع الأب فى الحجرة . عندما كان طفلا .. كانت الأم كل الدنيا .. الدنيا وما فيها . لا يقبل .. ولا يرضى أن يضربها أحد .. حتى لو كان أبوه . صوتُ أمه .. المتوجّع .. المتقطع .. يخرق أذنيْه . فى ليلة تالية طلب منها أن تترك مكانها على السرير مع الأب ، وتنام معه على الحصيرة .. حتى لا يتقطع قلبه حسراتٍ على صوت توجعها .. الذى يخرق أذنيه فى الليل . رفضت الأم بحياء وأدب ، لكن الأب نهره بعنف وخشونة : لقد كبرتَ يا شملول .. لم تعد ترضع لبنا .. ولم تعد تبول فى الفراش وأنت نائم .. استح على وجهك ، ونم مع إخوتك الذكور . إياك أن تنام مع البنات . !! يدرى .. أنه لا يدرى .. ولا يكاد يدرى سر إلحاح هذه الذكرى الأليمة على مخيلته . أحيانا تقفز إلى ذاكرته .. دون قصد أو إرادة . صغيرا كان يذهب إلى الكتاب وسمع ولدا كبيرا .. يتلو أمام العريف : «نساؤكم حرث لكم ، فأْتُوا حرثكم أنّى شئتم .. » راح يسأل أباه إن كان هناك « حرث » غير حرث الأرض ؟! ضربه كفا ساخنا مازال يحسّ — إلى اليوم — أن آثاره لا تزال تتردد على صفحة وجهه الأيمن . حتى هذه اللحظة .. يدرى أنه لا يدرى سبب ضرب أبيه المفاجئ له .. وطرده من أمامه . لم يحاول أن يسأل أباه .. أو أى أحد عن أى شيء لا يعلمه . التساؤل مفتاح المعرفة .. لو كان ذلك حقيقة .. إذن لم ضربه الأب

ونهره .. وطرده ؟ . الصمت أفضل طريق للنجاة حتى لو أصبح مثل حمار بريقع . منظر الأرض بين حقول الذرة الخضراء .. وحقول القطن السوداء يلح على ذاكرته .. كيف تكون هذه أرض .. وتلك أرض .. يبدو أن هناك أشياء كثيرة يجهلها فى هذا الكون العجيب . لم يكن يحس نشوة مثل تلك التى يصفها — بفخر .. وزهو .. وفرح — زملاؤه من الصبيان عندما يتبولون .. ويحفر بولهم حفرة عميقة فى عين المكان الذى فيه يتبولون .. أو عندما يسبحون فى الترعة .. كانوا يغطون أجسادهم بالطين من الرأس إلى القدم ، ويتركون بعضَ أجزاءٍ منها دون كساء طينى .. لعب عيال . اليوم العيال كبرت .. تفرقت بهم طرق الحياة . « صنوان وغير صنوان يُسقى بماء واحد ، ونفضل بعضها على بعض فى الأكل »

بينما هو مسند ظهره إلى شجرة التوت العتيقة ، سمع صوتا متقطعا كأنه مواء قطة ، لكن .. أية قطة يمكن أن تأتى إلى الحقل بعد الغروب .. حتى إذا تجرأت القطة وجاءت إلى هنا .. فمن أدخلها الدوار .. وما الذى جعلها تصدر هذه الأصوات ذات الإيقاع الخاص . ؟! بدأ يرهف السمع .. أخذ يحبس أنفاسه .. لا .. لا .. ليس هذا صوت قطة ، إنه صوت مرتعش .. متقطع .. نبات الذرة عندما يمر عليه الهواء يهتز كأنه يضحك .. كوز الذرة يبرز مفاتنه . الفتنة الكبرى عندما يتصدى النبات للهواء .. والريح .. يقول :

« هِئْتُ لك » . الريح .. يلقح النبات الصغير .. والكبير .. حتى النخل العالى . فى ليلة من ليالى شهر رمضان المبارك سمع مثل هذا الصوت .. أو صوتا قريبا منه .. ما الذى يجعل امرأ يتـألم .. يتوجع .. يتأوه .. بمثل تلك الطريقة .. ؟! « يا ليلة بيضة الليلة دى .. » تحيّر .. تغيّر .. تعجّب . اللعنة .. ألف لعنة تنزل من السماء .. تصبُّ فوقَ رأس على أبو العينين الصلعاء .. الملساء .. على الكلب .. ابن الكلب .. ذيل الكلب يظل أعوج ، حتى لو علقت به قالبا من الطوب . على أبو العينين هو الذى فجَّر محنة إبراهيم الدنف . الغيظ جعل صدره حرجا .. جفَّ ريقه .. ريقه مرّ .. المرارة تسرى فى الحلق والبلعوم .. البلعوم كاد ينسد .. كادتْ تزهق روحه .. أقسم بالله العظيم ثلاثا بينه وبين نفسه : إنْ ظفر به وحده ، فسوف يضربه علقة ساخنـة .. سوف يضربـه .. ويضربه .. ويضربه .. حتى يصرخ ويستغيث « جاى .. جاى .. الحقونى يا عباد الله .. !! » عندما يسأله بعض الناس : لم تضربه يا إبراهيم .. ؟! يرد بهدوء الواثق .. وقدرة صاحب الحق : هو يعرف .. وأنا أعرف .. !! على أبو العينين رجل نجس ، وما يحمله من دنس يكفى كى يعكر البحر الأبيض . إنه متزوج .. لكن ذيله نجس . لابد أن يفضحه .. سوف يفعل .. وهو على ذلك قادر . هناك أمر لا يقدر عليه .. لكن هناك أمور أخرى هو قـادر ..

وقادر .. وقادر عليها . سوف يتخذ من العجز قدرة .. ويستمد من الضعف قوة . الطبيعة عندما تأخذ .. فإنها تُعطى . سوف يجلس فى كل مكان .. وعند أى دكان .. يتحدث .. يتكلم .. يقول .. يحكى ما رأى .. وما سمع .. ما رأى بعينيه اللتيْن سوف يأكلهما الدود .. ما سمع بأذنيْه اللتين تسمعان دبيب النملة فى الليل البهيم . يا خفىَّ الألطاف .. نسألك العفو والمغفرة .. فى الدنيا والآخرة .

لحظة مرة .. شرختْ فكره .. وشقتْ صدره .. زلزلتْ .. زلزلتْ .. تُزلزل .. أمر عظيم .. لحظة مدمرة .. لا هو مع الموتى .. ولا هو مع الأحياء . يقظان .. أو نائم .. قادر .. أو عاجز .. لا يدرى .. لا يدرى .. لا يدرى .. !! كما لم يعد يدرى هل هو نفسه .. أو هو شخص آخر .. ؟! أمر طبيعى أن ينكرك بعضُ الناس .. أو حتى كل الناس ، لكن الذى لا يُعقل .. ولا يُصدّق .. ولا يُحتمل ، أن تنكر أنتَ نفسك .. يا سلام سلم . كيف يسلم السلام .. وما حدث له — فيما يرى — إحدى علامات الساعة .. تُذهل كل مرضعة عما أرضعتْ .. تلد الأمة ربتها .. يتحكم الوضيع فى الأصيل .. يسرق الغنى .. يعفُّ الفقير .. تسيطر المادة . ماذا تقدر أن تعطى لكى يمكن أن تأخذ .. ؟ الجسد يمتلك الروح .. الكافر يقود المؤمن .. زلزلة الساعة شىء عظيم .. الناس سكارى ، وما هم بسكارى . هذا الكون أصبح زبالة .. أصابه ما أصاب الناس من

فساد . بالحق أو بالباطل، سوف يفضح على أبو العينين .. ذيل الكلب . الشيخ عمران قال فى إحدى مواعظه : واقعةُ الزنا .. لا تُقبل إلا بشهادة أربعة من الشهود ، الذين تُرضَى شهادتهم . همَّ أن يسأله ، لكن هاجسًا حبس لسانه . كيف يجتمع شهود أربعة فى حادثة مثل هذه الواقعة ، وإن اجتمعوا .. فهل يجمعون على رأى واحد . ؟! إنه الشاهد الوحيد . بالحق .. أو بالباطل سوف يفضح على أبو العينين . لقد نبش جروحه .. وأدمى روحه . لم يكن قد حاول .. أو فكَّر فى أن .. سقط بجدارة فى أول اختبار . عاودته أوجاع رغبة مُحبطة . الشجرة التى لا تثمر .. ولا تظل ، تستحق القطع .. لكن أباه نهاه عن ذلك . القمر يبدو حائرا فى سماء بغير ضفاف . الليلة منيرة .. والسماء صافية .. لكن القمر يسير كالطفل الغرير .. لا يعرف من أين .. أو إلى أين .. لكنه يسير .. ومازال يسير .. ويسير .. ويسير . العجز فى بعض المواقف مقدور عليه .. لكن هذا الصنف من العجز .. صعب .. قاس .. مدمّر ، إنه عجز يجعلك تحس بأنك أضعف من برغوث .. وأعجز من نملة . عندما نظر داخل الدوار .. رأى ما لم تكن عيناه قد رأت من قبل ألبتة . الملعون على أبو العينين خلع جلبابه وسرواله ، وكان نائما يهتز فوق خضرة زوجة سعد أبو سعدة . نباتُ الذرة فى مراحل نضجه الأخيرة يهتزُّ كأنه يضحك .. الأوراق خضراء طازجة .. الأوراق

مرتوية .. كوز الذرة ناهد نافر .. الساق مدملجة حلوة .. تغرى . عجائز القرية تقول : الساق المرتوية علامة الجمال والكمال والدلال . أتعس النساء ذات العرقوب الجاف . تلك هى خضرة ، التى سموْها عندما كانوا أطفالا « خضرة الشريفة » . كانت تسير منذ صغرها مثل جمل المحمل .. الذى يزف كل عروسة تتزوج فى القرية . كانت ربعة فى غير طول .. ممتلئة فى غير بدانة .. لا يشتكى قصر منها أو سمنة . الصدر الأعظم صدرها يتبختر فى دلال مع كل خطوة تخطوها . لم تكن مثل كثيرات من نساء القرية فى ذلك الزمن الهادئ يعرفن حمّالة النهود . حمالة الحطب .. خضرة الشريفة .. وآهين يا كبدى .. خلعت ثوبها .. وعرت جسدها .. كيوم ولدتها أمها .. ورفعت ساقيْها . الكلب ابن الكلب على أبو العينين بارك فوقها مثل فحل الجاموس . عندما صارت خضرة امرأة كانت تثير غيظ نساء القرية كلهن .. قلبها الأخضر .. يستجيب لدعوة من ناداه .. إذا رضيت عنه خضرة . لكن كيف ترضى خضرة .. تلك هى المشكلة أو المعادلة التى يصعب على الكثيرين حلها . خضرة ليست ولّادة .. لكنها معطاءة .. تعطى من تشاء .. وتعزُّ من تشاء .. وتذل من تشاء .. !! أنوثة طاغية طازجة .. وزوج فقير مريض . الجنس سرٌّ من أسرار الكون .. سر مغلق .. لم جعل الخالق له كل هذه السَّطوة والجبروت ؟! « نساؤكم حرث

لكم ، فأْتُوا حرثكم أنّى شئتم ..» لا يدرى .. مازال لا يدرى .. لا يدرى لم ضربه أبوه حين سأله عن معنى هذه الآية الكريمة . لو كان فى الأمر عيب أو منقصة ما جاء له ذكر فى القرآن الكريم . القرآن الكريم على حق ويهدى إلى صدق .. وأبوه فى ضلال مبين ، إنه يسمع القرآن .. أو قد يقرأ القرآن ، لكنه غير قادر على أن يفهم كل ما يعبّر عنه القرآن . دار رأسه حين دخل الدوار .. دخل خائفا يترقب .. لكن الموقف المفاجئ جعله يهتزّ .. يترنح . كاد يسقط فوقعت يده على الحائط الخشن . أحدث وقوع يده على حائط الدوار شرخا فى دائرة الصمت . انتبه الرجل .. لم يتبيّن من الذى جاء على وجه التحديد . فى سرعة البرق خطف البلغة والجلباب والسروال .. وخرج مسرعا من باب الدوار . فصّ ملح وذاب .. !! . هرب الثعلب .. وبقى هو وحده .. وحيدا .. وحيدا معها .. وحيدا .. لأول مرة . لم يكن للدوار سقف .. لماذا ليس للدوار سقف .. لا يدرى .. لا يدرى .. .. لا يدرى .. !! ليل .. وقمر .. وامرأة .. ودوار بلا سقف . إبراهيم الدنف تائه .. صورة أمه .. مواء القطة .. أبوه يضربه حين سأله عن معنى الحرث .. نبات الذرة .. حطب القطن . لم تكن خضرة فيما يبدو مرتاحة لذلك الـذى حدث . نظرتْ بعينىْ ذئب .. ناعسة الطرف .. لم تسترح بعد . رغم غيظ لم تكد تبديه .. أو تخفيه مدت يدها نحوه ، وهى لا تزال

نائمة فى مرقدها . كانت الساق بعيدة عن الساق .. فنظر .. وبصر .. وتأمل .. وقدر .. وأخذ يفكر .. ويفكر ..!! فى لحظة فوق الزمان والمكان أدرك لم ضربه أبوه . !! أرض الدوار كانت غير مستوية .. فى المكان بعض روث لم يجف . اختلطت رائحة الروث .. برائحة ماذا .. لا يدرى ..! لم ترتبك .. ولم تحاول أن تغطى الأجزاء العريانة . ساق نبات الذرة ريّا المخلخل .. نبات الذرة أخضر .. وكوز الذرة يكون لذيذ الطعم حلو المذاق حين يشوى على نار هادئة . من مرقدها .. مدّتْ ذراعا بضّة .. وحاولت أن تجذبه من يده اليمنى بيدها اليسرى . لكنه لم يتحرك .. ولم يحرك ساكنا . الطائر الأخرس .. ظل أخرس . حاولت أن تجذبه من ثوبه . ثوبه قُدَّ من قُبل .. بعد مدة لا يدرى هل طالت أم قصرت جلس بجوارها على أرض الدوار غير المستوية . أحس أنها فى مكان عال .. وهو فى مكان منخفض . مازال مترددا حتى بعد أن تباعدت الساق عن الساق . تجربة قاسية . تمنَّى كثيرا هذه اللحظة .. لكنه لم يسع إليها طوال خمس وعشرين سنة . ها هى اللحظة قد جاءته . أحس أنه يغرق فى شبر ماء ..لا ، شبر ماء كثير .. إنه يغرق فى بوله . ماء .. حار .. مالح .. مر .. يتصبب بغزارة من كل خلايا جسده . كانت نائمة على ظهرها فاتكأت على مرفقيها .. فبرز كوزان من الذرة .. وتدلى من خلفها شعرها الليلى المجنون .. نبات الذرة

يُغرى .. ويُغرى ، بماذا لا يدرى أنه يدرى .. لا يدرى .. !!
تعال يا حبيبى . أنا حبيبك أيتها اللبؤة .. هل هذه طبيعتك وحدك .. أم أن تلك فطرة كل نساء الأرض ؟! يدرى .. أنه لا يدرى .. ولن يدرى . سوف أكون لك .. لك وحدك هذه الليلة . لكن استرْ علىَّ الله يستر عليك . أول مرة ترى رجلا مثل لوح الخشب . لا تعرف السبب .. لو أن يوسف كان فى مثل هذا الموقف مع امرأة العزيز .. ؟! مدت يدها المرتوية فى طوق جلبابه . مازال الأمل يحدوها . تحاول أن تُغريه .. وأن تُعرّيه . إنه فى حالة ذهول تام . العرق يتصبب من كل خلايا جسده . ثقل جلبابه من كثرة ما ابتل .. كأنما بال على نفسه . ليته يقدر على شىء غير ذلك .. !! ظل يعانى .. ويعانى .. ويعانى مثل قروى ساذج .. أمام حاوٍ ماهر .. ماهر جدا فى مولد .. يا دنيا . تعرى كما طلبت . هم بها .. وهمت به . اقترب منها .. واقتربت منه .. جذبها بقسوة ومالت إليه . التقت الشفاه . لم تكن بالترعة مياه . قطرات عرق .. فى مساء حزين . أشجار القطن بعد جمع القطن تصبح سوداء .. كالحة .. لا فائدة منها .. ولا أمل فيها . هناك فرق بين عود القطن الكالح الجاف .. وعود الذرة الأخضر المرتوى . نار الحطب لا تستطيع أن تذيب برودة الجليد . تخيل كوزا من الذرة الساخن يغرى بالشمّ .. والضمّ .. والهمس .. واللمس . من أين يأكل الإنسان

البطة ؟ .. ابدأ من أى مكان شئت .. المهم أن تبدأ .. أن تأكل .. وسوف تدرك بعد وقت طال أم قصر ، أنك أكلت البطة كلها من الرأس إلى المؤخرة . أنت مكسوف يا حبة عينى .. أول مرة أرى شابا مثلك .. تعال .. سوف أعلمك . لم يستطع الكائن الأخرس أن ينطق كلمة .. حتى ولا حرفا .. حرفا واحدا . آه .. وآه .. وآه .. لو عرف أصحابه لجعلوه يركب حمارا بالمقلوب ، وألبسوه منديل رأس حريمى ، ومشوا حوله ينشدون :

إبراهيـمْ يـا وِشّ القملَـةْ
مِنْ قالك تِعملْ دِى العَمْلـةْ

الأرض الشراق .. أرض عطْشَى . هذا هو مصير أرض القطن بعد أن يقطعوا منها الحطب الأسود . سوف تظل بائرة إلى أن يأتى موعد زراعة القمح .. أو البرسيم . مدة طويلة .. تبقى الأرض الشراق على حالها .. لا مـاء .. لا زرع .. لا حياة . سوف تتشقق .. ويصبح الشق واسعا .. طويلا . المياه .. سر الحياة هذا هو قانون الوجود ، حتى مع الأرض ، أو مع الكائنات التى لا تعقل .. ولا تعى . الوعى ميزة عظيمة .. لكنه فى بعض المواقف مصيبة كبرى .. يكون مثل النار ، التى تأكل الحطب . على أبو العينين .. وخضرة حمالة الحطب هما سبب ما يعانى منه الآن . بقدر ما كان حزينا .. أسفا على نفسه ، كان حانقا .. غاضبا على الدنيا .. ومن

فيها .. وما فيها . لِم لَم يستطع أن يفعل ما فعله صاحب الذيل النجس .. ذيل الكلب ؟! أحس سلسلة ظهره مفككة .. لم كان ظهره مصدر آلامه فى تلك اللحظة العاصفة .. المدمرة . إنه أفضل حالا .. وأقوى صحة .. من ذلك الرجل الضعيف .. السخيف على أبو العينين . يبدو أن هناك أسرارا فى الحياة لا تدركها العين المجردة.قويت فى نفسه .. وكبرت فى رأسه .. الرغبة فى أن يفضح ذلك الرجل الآثم فى كل مكان .. وعند أى دكان . لن يقول لأحد أنه فعل فعلته مع خضرة . لكن لماذا يسامح خضرة .. ولا ينطق عليها حرفا واحدا .. رغم أنها كانت مشتركة فى الذنب نفسه . المرأة مخلوق ضعيف .. والرجل .. الرجل هو السبب . ربما كان هذا صحيحا .. وربما .. أو ربما . لا يدرى .. لا يدرى .. لا يدرى !! رأسه المشْتعلُ هما .. وغيظا لا يدرى سوى شىء واحد .. هو أن يفضح صاحب الذيل النجس . أسرها إبراهيم الدنف فى رأسه رغم أنه يعرف جيدا أن بعض الحيوانات لها ذيل .. وبعضها الآخر لا ذيل له . تصوّر الفضيحة .. وقد عمت القرية كلها .. الناس اليوم مثل قش الأرز .. شرارة واحدة تحرق قش القرية كلها فى لحظة خاطفة . نار القش تشتعل بسرعة ، لكنها لا تسوى شيئا .. وإن خلفت رمادا أسود . تصور أهل القرية ـ وقد سرت فيه حمية الغضب ـ سحبوا على أبو العينين من طوق جلبابه .. ودفنوه حتى الرأس فى كوم من

السماد البلدى .. وتركوه يومين أو ثلاثة مع الروث والطين .. ثم يحرقونه ، بعد أن يضعوا فوقه كومةً من القش . معظم أهل القرية لا يجيدون سوى الكلام .. كلام .. كلام .. أى كلام .. وهو يريد الفعل .. أى فعل .. وهو نفسه عاجز .. عاجز .. عاجز . حين أدركت خضرة أنها تنفخ فى قربة مقطوعة ، قامت من مرقدها ، وهى تنظر إليه فى سخط وغيظ . حين جاءت عيناها فى عينيه تمنّى أن تنشق الأرضُ وتبلعه . قل لأمك ترقيك .. أكيد معمول لك عمل . أجاب وهو ينظر إلى سقف الدُوَّار .. فامتد بصره إلى حيثُ غاب القمر .. وذهب بعيدا : أمى .. ما .. مات .. ماتتْ يا خضرة . أخذتْ تلبس ملابسها فى هدوء قطعة .. قطعة .. وتصلح زينتها .. كأنْ ليس معها أحد . أخيرا .. وضعت الطرحة على رأسها .. ومضت تتبختر فى دلال .. ومشتْ دون أن تُحيِّيه .. أو تقول شيئا . حاول أن يجفف العرق ، الذى أخذ يتصببُ من كل خلايا جسده . مازال مصرًّا على أن يفضح الرجل فى كل مكان .. وعند أى دكان . ترك الدوار .. ومضى بعد أن ذهبتْ .. واختفتْ . حين وضع قدميه على الطريق ، تراءتْ له القرية .. بعيدة .. بعيدة .. بعيدة ، كما لم تتراء له أبدًا من قبل ... !!(١)

---

(١) ٢٢ فبراير ١٩٩١ .

— نُشرتْ فى : جريدة « المساء » القاهرة فى ١٠ يوليو ١٩٩١ .

العِفْرِيت .. و .. والكَبْرِيت

يعرف أنه وحيد فى الليل . هذه الليلة من ليالى طوبة شديدة الظلام . اعتاد البرد والظلام والوحدة . إمام المسجد ــ قال ذات مرة من المرات القليلة التى زار فيها المسجد : إن الله خلق آدم من طين . منذ صغره يحس أنه من طينة مختلفة . شىء ما يزاحمه البرد والظلام والوحدة . الشىء بدأ يتحرك .. يُحدث صوتا .. دبيب أقدام . الظلام شديد . لم يعان لحظة ما من الخوف .. دائما يفتخر أنه رجل من ظهر رجل .. مع أنه لم ير أباه .. و لم يعرفه .. و لم يشغل نفسه يوما بالسؤال عنه . يا ابنى أصلك وقتك .. !! حكمة قالها الشيخ عمران إمام المسجد ، لكنها أصبحت فلسفته فى الحياة . الحركة تقوى .. وتشتد . هذه حركة أقدام تقـ .. تقتـ .. تقتر .. تقترب . صار الوهم حقيقة ، تتحرك أمام عينيه فى الوحدة والظلام والبرد . بحث عن البندقية .. خرج من العشّ .. يتلمس طريقه . القادم يقترب أكـ .. أكثـ .. أكثر . لعنه الله ألف لعنة عباس الغرباوى الزفت ، حماره هرب من الزريبة منذ صِغره كان لا يخاف من العفاريت الزُّرق .. وهو اليوم يخاف من الحمار . هدأت خواطره المرتعشة . أخذ يتأمل شونة القطن .. وهو لا يكاد

يراها ، لكنه يعرف كل شبر فيها . هنا كل ما جُمع من قطن التسويق الزراعى تمهيدًا لنقله إلى البندر . هنا كل ثروة القرية .. كل جهد الفلاحين . ولد من أبناء المدارس قال جملة لم يفهمها : القطن .. هو الذهب الأبيض . الدنيا تغيرت .. وهناك أيضا ذهب أسود . !! لا يحب الكلام كثيرا .. ولا يهمه الكلام .. أو السماع . أحس نشوة مثل تلك التى أحس بها منذ سنوات بعيدة . حين بلغ مبلغ الرجال ، أراد أن يختبر رجولته . الاختبار لا ينبغى أن يكون مثل اختبار بقية الصبيان .. امرأة ورجل ، هذا هو الاختبار الحقيقى . أن تثبت لنفسك أنك رجل .. هذه ميزة عظيمة .. حتى لو شهدتْ بذلك حمارة ، لا تنطق ولا تتكلم . الحمير مخلوقات من خلق الله ، والكلاب أيضا مخلوقات من خلق الله .. وهندى على أبو هنداوى نفسه ، يعترف بفضل الكلاب على كثير ممن لبس الثياب . المرأة التى رأى أنه قادر عليها هى حميدة بائعة الترمس . عجوز جافة العود .. لكنها امرأة . تخفَّى لها ، وهى ذاهبة قُبيْل الفجر — كعادتها — لتغسل الترمس فى الترعة . ظهر أمامها عريانا ، وقد غطى جسده بالطين . بدا فى الظلام عفريتا بحق وحقيق . وقعت على ظهرها من هول المفاجأة . عوى كلب قرب القنطرة ، التى تفصل بين القرية ومعظم الحقول . الكلب يعوى .. ويعوى قرب القنطرة . رجل من ظهر رجل . عالم المرأة عالم لذيذ .. لكنه محفوف بالمخاطر .. ووجع

الرأس ، وهو يحب المخاطر ، لكنه يكره وجع الرأس .. واللفّ .. والدوران . ما تقدر عليه خُذه بالذراع .. وما لا تقدر عليه أرحْ نفسك منه . المتعة المقدور عليها هى شرب السجائر .. والجوزة . الجوزة لها ألف عوزة . رأس بلا كيف تستحق سيف . النار فى الجوزة تشتعل .. تتوهج .. تزغرد . جوزة من الهند يا ولد يا هندى يا أبو هنداوى — قال على الزملوطى :

جُوزة من الِهنـدْ ومَـركّبْ عـليها غَـابْ
أنا خـدتْ منها نَـفَس العقْـل مِنّـى دَابْ

النار تشتغل فى الجوزة .. تتوهج ، لكنه أحس بعد أن ترك حميدة بائعة الترمس أن نارًا فى داخله قد انطفأتْ . لم خلق الله النار فى هذه الدنيا .. ألا تكفى نار الآخرة .. ؟! خطيب المسجد قال ذات مرة : إن الله قد خلق آدم من طين ، وخلق إبليس من نار . إبليس أحسَّ أنه أفضل من آدم .. وعصى أمر ربه .. فوسوس إليه ، حتى أخرجه من الجنة . إبليس ليس عفريتا عاديا .. لكنـه زعيم كل عفاريت الجن والإنس . إبليس مخلوق من نار . النار تحرق الحطب والقش ، لكنها تطهّر جوهر المعادن الغالية . النار هى التى تحيى المعسّل فى الجوزة .. المياه تكركر .. والنار تتوهج .. يملأ الدخان صندوق صدره . يطرد الدخان من فتحتىْ أنفه .. والجوزة لا تغادر فمه . يقول على الزملوطى وهو يضغط على جمرات النار فى الحجر

بالماشة : معلم والله ياسى هندى يا أبو هنداوى .. عاش النفس . تاه عن شلة الجوزة ، وقد شغله أمر النار .. لم خلق الله النار ؟! إيمانه ليس قويا .. لكنه يدرك أن الله خالق كل شىء . النار تحرق وتهلك أم تُحيى وتنشىء .. ؟! يدرك جيدًا أنه يحس نشوة حين يأكل لحما طريا .. أو سمكا مقليا .. أو كوز ذرة مشويا . أما اللذة الكبرى فعندما يشرب سيجارة .. أو يشدُّ نفسا من الجوزة .. أما لـذة العفاريت .. النار التى لا تكاد تنطفئ حتى تعود .. فهى النار التى تتحرك فى ظهره .. وتؤكد أنه رجل من ظهر رجل .. !! إنها نار تتلظى .. تشتعل فى كل عروقه .. وعندما يستريح تخرج مـن نافوخه .. ويحس بعدها أنه قادر على أن يفعل أى شىء فى الدنيا . !!

لعنة الله عليك يا عباس يا غرباوى ، لم تركت باب الزريبة مفتوحا ، ونمت مثل فحل الجاموس ، وتركت حمارك يتجول فى القرية ، كأنه خفير الدرك ؟! اشتاق فى تلك اللحظة ــ التى يعانى فيها من الوحدة والظلام والبرد .. ويلعن عباس الغرباوى وحماره ــ إلى سيجارة . لا يتذكر من الذى علمه شرب السجائر .. ولا متـى .. ولا كيف ؟!. الأمر الذى يدرى جيدا أنه يدريه هو أنه صار يشرب السجائر منذ بدأ يعى الدنيا .. ويتعرف على ما فيها .. ومن فيها . دنيا عجيبة .. وأعجب ما فيها يا ولد يا هندى هو ما نجهله عنها . عباس الغرباوى قال له : الرجال بحقّ وحقيق هم الذين يشربون السجائر .

هل رأيت امرأة واحدة فى القرية كلها تدخن ؟! .. وآه يا ولد يا هندى يا أبو هنداوى لو السيجارة محشوَّة ، تكون رجلا من ظهر رجل ، وترى الدنيا على حقيقتها . الدنيا مليئة بالحاجات الحلوة . لكن الغلابة مثلنا محرومون منها . تمنّى فطيرة من المشلتت .. حتى فطيرة المشلتت تحتاج إلى نار . نار .. نار .. النار دائما تطارده فى الليل والنهار .. والنوم واليقظة . لم يفلح فى تعلم حرفة أو مهنة . المدرسة ضاق بها من أول يوم ، وخرج منها مثل ما دخل . الزراعة لم يصبر على تعبها وهمها الثقيل . العمل الذى تمنّاه هو أن يكون راعى غنم .. لكنه لا يملك ثمن عنزة . عمل خفيرا .. فى أكثر من مكان ، لأنه ملول .. لا يقدر على الاستقرار .. ولا يطيق البقاء فى مكان واحد .. حتى الحجرة التى ورثها،كثيرا ما يهجرها .. وينام فى أى مكان .. فى القهوة .. تحت شجرة توت .. على مصطبة فى أى شارع من شوارع القرية . مازالت الرغبة فى السيجارة تلحُّ عليه .. والظلام باسط ذراعيْه . عندما كان صغيرا حدثه كثير من الصبيان عن العفاريت التى تظهر فى صحن الترعة . صحن الترعة ... أو سع وأعمق مكان .. تحت القنطرة مباشرة . أخبث العفاريت وأشقاهم — هذا ما قاله رمضان أبو الغيط اللحَّاد — هم عفاريت المقابر — إذا ذهبت إلى هناك خاصة فى ليلة البدر التمام ، ترى العفاريت بحق وحقيق ، كما أراك الآن ، وهى تجرى .. تلعب ..

تغنى .. ترقص . العفاريت تقيم فرحا كبيرا ، تكون الوليمة فيه جثة آخر ميت .. يقتسمون لحمه وعظامه ، كما نقتسم نحن بنى آدم لحم الطيور والحيوان . كان يتعمد أن يذهب ، إلى كل الأماكن التى قيل له إن العفاريت تسكن فيها . يريد أن يرى عفريتا .. ولو مرّة واحدة فى حياته . يا بنى .. ما عفريت إلا ابن آدم — هكذا قال الشيخ عمران .. ذات يوم ، لكنه غير مُقْتنع . هذه هى اللحظة التى تذهب فيها حميدة إلى الترعة لتغسل الترمس . العود الجاف لا يخرج ماء .. ولا يطفئ عطشا . لو الجوزة موجودة .. لأشعل بعض الحطب ، حتى يتدفأ .. ويدخّن . النار .. النار المقدسة سوف تطهره من كل ما يعانى . أحس النار فى داخله أقوى من أيتها نار.. يحملها إنس أوجان . تحسسَ جيب « السّيالة » . مد يده فى جيبه ، فأخرج علبة السجائر . رغم الظلام رأى أكياس القطن يعلو بعضها بعضا فى صفوف منتظمة . هذه الأكياس هى حصاد جهود أبناء القريــة أجمعين فى سنة كاملة . القطن أهم محصول .. ومن ثمنه سوف يحل كل فلاح مشكلته .. الذى يريد أن يتزوج .. أو يزوّج ابنـه أو ابنته .. أو الذى يريد أن يبنى دارا .. أو ساقية .. أو الذى يريد أن يحج إلى بيت الله . اشتاق إلى فطيرة مشلتت .. وإلى أنفاس الجوزة .. وإلى أن يثبت لنفسه مثل كل البشر أنه رجل من ظهر رجل .

عطشان يا صبايا دللونى على السبيل . امتلأ قلبه بالحقد والغيظ .

هذه الأكياس من القطن .. تساوى .. تساوى .. كم تساوى يا ولد يا هندى يا أبو هنداوى ؟! ألف .. لا .. ثلاثة .. لا .. خمسة .. لا .. على الأقل عشرة آلاف جنيه . أمامك الآن عشرة آلاف جنيه ، وأنت لا تحتكم على عشرة قروش يا ولد يا هندى ..!! ولد من أولاد المدارس قال له إن القطن المصرى يُصدّر إلى روسيا .. وأمريكا .. وإنجلترا .. وبلاد الإنجليز .. وكثير من بلاد الله .. التى لا تؤمن بالله .. ولا توحّده مثلنا . الشيخ عمران الذى يصدع رأسنا كل يوم جمعة لماذا لا يذهب إلى البلاد الأجنبية البعيدة .. بلاد الكفر والكفّار ويدعوهم إلى عبادة الله .. ؟! تصوّر يا ولد يا هندى يا أبو هنداوى ، الكفّار سوف يصنعون من القطن الذى تحرسه الآن ملابس جميلة للرجال والنساء ، نساء الفرنجة لهن طعم آخر .. لقد رأيتهم بعينى فى السينما . أحس أنه يقف فى مرحلة المابيْن .. لا هو مع الإنس .. ولا هو مع العفاريت .. لا هو مع أبناء الموحّدين بالله .. ولا هو مع أهل البلاد البعيدة الكفرة .. ولا هو مع حمار عباس الغرباوى .. ولا مع حميدة بائعة الترمس .. ولا مع جوزة على الزملوطى .. ولا مع عفاريت رمضان أبو الغيط .. ولا مع الشيخ عمران . إنه الآن وحده .. مع الليل والوحدة .. وبرد طوبة . صوت نقيق الضفادع يأتى بعيد . الكل نيام ، وعليه وحده أن يظل مستيقظا ، فقد يأتى حرامى .. أو ابن حرام . عفاريت المقابر تأكل

ما تحرسه .. وهو مُحرَّم عليه أن ينال شيئا مما يحرسه . لن يأخذ مالا ينفقه .. أو حتى ثوبا يلبسه . النار تتوهج داخله . أخرج علبةَ السجائر من « السيالة » . وأخذ يبحث عن الكبريت . دائما النار تقف أمامه ، كما يقف العفريت أمام من يريد أن يضله من عباد الله . أخذ يبحث عن الكبريت .. هنا .. وهناك .. سوف يشعل السيجارة ، ويخرج الدخان من أنفه ، حتى يثبت لنفسه أنه رجل من ظهر رجل . أشعل السيجارة .. ورمى عود الكبريت فوق القش . النار .. النار المقدسة سوف تمتد .. وتتسع .. تتوهج .. وتزغرد مثل نار الجوزة ، إلى أن تصل إلى القـ .. القط .. القطن ، حتى لا يصدر إلى الكفّار ، وتصنع منه ملابس جميلة ، يلبسها أبناؤهم ونساؤهم المائعات . لا أحد يقظان الآن فى القرية إلا هو وحمار عباس الغرباوى . بدأت النار تمتد .. وأخذ الدخان يشتد . النار التى تأكل الناس والحجارة سوف تأكل القطن . فكر أن يهرب بعيدا عن بلد .. لا أهل له فيها .. ولا قطن .. ولا أرض .. ولا عرض . بينما كان يستعد للهرب ، تطاير الشرر .. حا .. حاو .. حاول أن يجرى .. أن يـ .. يهـ .. يهر .. يهرب . النار لا تزال مشتعلة .. وهو يـ .. يحا .. يحاو .. ويـ .. ويحا ..... !![1]

---

(١) ٢٥ يناير ١٩٩١ .

ــ نُشرتْ فى : جريدة « مايو » ــ القاهرة فى العددَيْـن ٩٧١ ، ٩٧٢ فى ٢، ٩ / ٣ / ١٩٩٢ .

حَ ا دِى .. بَ ادِي

تأمل العجوز المريض نفسه فى المرآة ، وتلك عادة لا يمارسها كثيرا . هناك شرخ .. فى المرآة .. فى الزمان .. فى نفسه هو .. لا يدرى . المسافة بعيدة بين الأمس واليوم ، فماذا سوف تكون بين اليوم والغد ؟ كان معلما وربَّ أسرة . ظل يُعلم التاريخَ فى المدارس حوالى ثلث قرن . جيل كامل تخرَّج على يديْه . يبدو أن تلاميذه نسوْا العلم والمعلم .. وأن أسرته المتحدة تفرقتْ إلى ولايات ومقاطعات . الأولاد .. كبروا، تعلموا ، توظفوا ، تزوجوا ، هربوا ، تركوه وحيدا بين أطلال الذكرى ، حتى مرفت الحبيبة .. نسيتْ بابا نصر ، وشُغلت بالزوج والأولاد والعمل . كان يحس معها الحنان والأمان ، ويشم فيها عبيرَ الأم الراحلة . آه .. حتى مرفت البريئة الرقيقة ، تاهتْ فى الزحام . لم يعد لدى الأب المعلم من يتبنَّاه .. أو يعلمه .. أو حتى يكلمه . جميع الأبناء والتلاميذ لم يعد فيهم كائن واحد .. وفىّ .. بار . كل من ربَّاه أو علمه .. نسى التاريخ أو أُنسىَ ذِكره . منذ أربع سنوات وستة شهور وخمسة أيام أحيل إلى التقاعد . صباح اليوم جاءته رسالة ، فرح فى البداية ، وظن أنها من أحد تلاميذه .

السيد / نصر منصور عبد الناصر

بعد التحية .. نرجو إفادتنا — على وجه السرعة — عما إذا كنتَ على قيد الحياة من عدمه ، حتى يتسنَّى للإدارة مواصلة صرف المعاش المستحق لكم .

مأساة ساخرة ، أن تقدم استمارة وتوقّعها بنفسك ، وعليها ختم النسر — شعار دولتنا العظيمة ، لتثبت لإدارة المعاشات الموقرة أنك مازلت على قيد الحياة .. ياه .. ياه .. !! من .. من المسئول عن مثل هذا الغباء ؟! أليس خطابا سخيفا مثل هذا يُمكن أن يُسكت قلب عجوز مريض .. إلى أبد الآبدين . ؟! الموظفون فى الأرض .. تلك هى حقيقة التاريخ الحديث وفلسفة المجتمع المعاصر . ازداد إحساسه بالوحدة والغربة والكآبة والمرض .. والعجز ، عجز أحيانا عن إحضار شربة ماء. هذه الدنيا هجير كلها . لم يعد هناك عزاء فى أحد .. أو فى شىء . أيقظه من صدى الألم صوتُ جرس الباب يدق بقوة . تحامل على نفسه . حاول أن يستجمع أعضاءه المفككة ، ويلم بقايا عافيته الضائعة . فتح الباب — مستندا على عصاه . سعيد البواب بقامته الفارعة الممتلئة وقفاه العريض وشاربه المتهدل ، يقف مثل حمار حساوى ، وأصبعه — التى تستحق القطع — لا تزالُ تضغط على مفتاح الجرس : مالك يابهيم .. القيامة قامت ؟. يعرف الطريق جيدا ، كأنه واحد من أهل البيت . توجه — دون أن ينطق — ناحية

المطبخ . ترك مامعه وعاد واقفًا أمامه : أصل حضرتك ولا مؤاخذة يا أستاذ .. أشار بأصبع يده اليسرى ناحية الأذن اليمنى . لم يكمل الجملة التى قالها أكثر من مرة .. وفى كل مرة يوبِّخه بسببها ، لكن من يقرأ ومن يستمع ؟ جلس الأستاذ — الذى كان يُسكت فصلاً به خمسون تلميذا ، ويفرض هيبته عليهم دون أن يقدر أىُّ واحد منهم أن يأتى بحركة ، أو يقول كلمة — جلس متهالكا على كرسى فوتيه — لا يغيِّره — بجوار منضدة صغيرة ، عليها تليفون أسود وبعض الجرائد . ذهب الجميع .. و لم يبق إلا سعيد . هاتِ الباقى يا أستاذ . بدت المسافة بينهما بعيدة . الأستاذ نصر يجلس على الكرسى ، وسعيد واقف أمامه مثل خيال المقاتة . لكنه يبدو له أطول — ربما أكثر من قامته الحقيقية . اشتريت لك الدواء والطلبات بثلاثة عشر جنيها ونصف .. وأخذت عشرة فقط . لم يهتم .. ربما لم يفهم معنى نظرة الريبة والسخط : حضرتك قلت لى — أكثر من مرة — هات دائما حاجات نظيفة .. الثمن ليس مهما ، لذلك اشتريتُ ما طلبتَه من السوبر ماركت .. أى والله من السوبر .. مازال يثرثر ، لكنه لم يكن ينصت إليه . كان مشغولا بأمر آخر ، حدث منذ حوالى خمسة عشر عاما ، وبالتحديد يوم ٥ / ٦ / ١٩٧٧ . ذلك الغبى .. الذى يبتزنى — الآن — عينى عينك ، هو ذاته الذى أحضرته أنا نفسى من القرية ، وتوسطت له ، حتى يَشغل هذه الوظيفة . بعد وفاة صاحب

العمارة ــ منذُ خمس سنوات ــ صار سعيد هو الذى يجمع الإيجارات ويؤجِّر الشققَ المفروشة ، ويُعطى كل واحد من الورثة نصيبه ، بعد أن اشتعلت بينهم نار الخصومة بسبب الميراث . سعيد لم يعد يرى نفسه بوابا للعمارة ، وإنما مديرًا لها . إنه بواب فقط للشقق المفروشة . لولا أنى السبب فى ماهو فيه من عز ، لما أحضر لى شيئا بالمرة . سعيد الذى لم يحتكم مرة على جنيه ، ولم يعرف شكله حين كان يعيش فى القرية ، أصبح اليومَ يلعبُ بالدولار والدينار ، يأكل اللحم ويركب التاكسى ، يشرب البيرة المثلجة ، يدخن مارلوبورو الحمراء . إذا قدمتُ له سيجارة كليوباترا يرفض : لا أعيِّر المارلوبورو .. أصلها أمريكانى . الحاجات المستوردة دائما نظيفة ولطيفة . ابتسم فى خُبث : حتى الحريم الخواجاتى .. يا سلام ياجدعان . قبَّل باطن يده بشكل سُوقى مبتذل . نظر .. فلم يجد علامة رضا أو قبول : لا مؤاخذة يا أستاذ . نسيت أن حضرتك « فنيتو » خلاص ، لم يعد لك حاجة فى صنف الحريم . بلع ريقه . أخرج سيجارة مارلوبُورو . أشعلها بولاعة معدنية . وضع العلبة والولاعة فى جيب ثوبه البلدى . أخذ نفسا عميقا ، كأنه يمارس فعلا شاذا . توقف ثم أردف : على كلٍ .. هات الباقى ، لأنى مشغول ومستعجل . قال حتى يُنهى الحوار بسرعة : لا يوجد فكة . فرد فى جرأة : يبقى عليك ثلاثة .. وجنيه قديم ، فيصير المبلغ كله أربعة ..

يعنى خمسة .. سلام عليكم . مَرقَ سريعا واختفى ، كأنه عفريت من الجن عزَّتْ عليه نفسه كثيرا ، حين أدرك أنه مَدين — ولو للحظة — لسعيد البواب ، الذى صار يلعب بالبيضة والحجر . تعجب أكثر لأنه هو وسعيد أبناء قرية واحدة . سعيد جاء من القرية حَملاً وديعا ، لكن المدينة جعلته ذئبا غشيما . كيف .. كيف حدث كل هذا ... لم تغير سعيد ، و لم يتغير هو نفسه — رغم أنه عاش فى المدينة فترة أطول مما عاش سعيد ذاته . ؟! لم يعد العجوز المريض قادرا على أن يقوم من مجلسه ، حتى يضع الدواء والأشياء فى الثلاجة حتى لا تفسد . آه .. الفساد ، كل شىء قابل للفساد السريع فى عصر السوبر ماركت والشقق المفروشة والبيه البواب والسيد المحتال . ماذا .. ماذا حدث لخريطة المجتمع .. يا أستاذ التاريخ . ؟! صدقتَ يا رسول الله صدقت يا خاتم الأنبياء .. أن تلد الأَمَةُ ربَّتها ، وترى الحفاةَ العراةَ رعاةَ الشاة يتطاولون فى البنيان .. ويُرفع العلمُ ويَظهر الجهل ..يسوُد كل قبيلةٍ منافقوها .. ويلى الأمرَ غيرُ أهله ، فانتظر الساعة . !! الأستاذ نصر علَّم التاريخ القديم والحديث لجيل كامل . لم يكن درسُ التاريخ عنده مجرد وقائع وروايات ، وإنما عبرًا وعظات . لكنه الآن .. لم يعد نفسه يفهم كثيرا من قضايا التاريخ المعاصر . أهم حادثة حيَّرته هى حربُ الخليج ، التى أشعلها النظام العراق .. مع إيران .. ثم مع الكويت .. بل مع الأمة كلها . تلك

الحروب الشيطانية ، التى صبغتْ مياه الخليج بالدم ، وأحالتْ نفطَه إلى نار ودخان ، وأحدثتْ شرخا فى صف العروبة .. وجدار الإسلام ، لا يدرى سوى علام الغيوب — وحده — متى يمكن أن تُعالج آثاره وتتوقف شروره . لا يدرى لصالح مَنْ .. الأرواحُ التى قُتلت ، والأجسادُ التى شُوِّهَت ، والبلادُ التى خُربت ، والأموالُ التى بُعثرتْ ، والأواصُر التى قُطعت ، والمصائبُ التى حَلت . وهل قامت تلك الحرب صدفةً .. أم تنفيذًا لخطة ، ومن يكون الثعلب الذى حرك يد القط .؟! الزعيم المهيب أدى بإتقان دوره فى حلبة السيرك . حين يضل القائد أو يُضلل فماذا يمكن أن تفعل الرعية ..؟!

يُروى أن بومة فى البصرة أرادتْ أن تُزوِّج ابنها ، من ابنة بومة فى الموصل ، فوافقتْ ، لكنها اشترطت عليها أن يكون المهر مائة قريةٍ خراب ، فأجابتها بومةُ البصرة : لا أستطيع أن أفعل ذلك الآن ، ولكن إذا أبقى الله السلطانَ عاما آخر ، قدمتُ لك هذا المهر وزيادة . ! دق جرس التليفون فجأة مع أنه قد يمكثُ أياما وليالى لا ينطق ، كأنه أبو الهول — كسرتْ أنفه لعنةُ الانتظار الطويل . مد يده ليمسك السماعة ، فتحركت آلام الروماتيزم فى مفاصله وعظامه . المتحدِّثة هى إيمان زوجة ابنه الكبير منير ، تريد أن يشترى خمسة كيلو لحم مشفّى . سوف تدعو أسرتها إلى الغداء يوم الجمعة القادم ، لكن منير مشغول ، وهى لا تستطيع أن تتعامل مع الجزارين . لن يستطيع

أحدٌ أنْ يُنقذ الموقفَ سوى بابا نصر ــ أطال الله عمره . بعد كل هذا التعب والعذاب لا تريد أن ترحمنى يا منير . ؟ ماذا بقى لى اليوم منك يا ولدى ؟ تعزم أسرة زوجتك ، وأنا .. أنا العجوز المريض صاحبُ المعاش الموقوف أدفعُ الحساب . ؟! البشرُ دائما ينسوْن آباءهم ، ويتذكرون ــ فقط ــ أبناءهم . ضاع الحنانُ والأمان .. مثلما ضاع الزمان الإنسان ، يوم كان معلما يقول فيُسمع ، وصاحبَ أسرة يأمرُ فيُطاع . كل شيء فى تلك الأيام كان جميلا ومفيدا ، حتى اللعب . البنت ميرفت كانت تحب أن يلعب معها هى وإخوتها لعبة « حَادِى بَادِى » ، حيث يضعون أكفهم الصغيرة على الأرض ، وهو يلعب معهم ، ويُغنِّى لهم بصوت مُوقَّع :

حَـــادِى بَـــادِى سيدى محمد البُغْــدادِى
شالُـــه وحطُّـــه كلُّـــه عَلـــىَ دِى

مرفت الحبيبة .. لم يكن يخطر فى فكرها أن منطق « حادى بادى » يمكن أن يصبح فلسفة لمرحلة فى التاريخ المعاصر . ضاع كل شيء يا مرفت ، لم تبق سوى الأطلال .. والذكرى . لم يعد هناك أمر مفهوم .. أو شيء معقول فى هذه الأيام . الخيبة أفظعُ مما كان يتوقع .. والحقيقة أكبرُ من أى خيال ، !! صدقت يا رسول الله .. صدقت يا خاتم الأنبياء .. أن تلد الأَمَةُ ربتها .. وترى الحُفاةَ العراةَ رعاةَ الشاة يتطاولون فى البنيان .. ويُرفع العلمُ ويَظهر

الجهل .. ويسود كلَّ قبيلة منافقُوها .. ويلى الأمرَ غيرُ أهله ، فانتظر الساعة . انتبه فجأة على صوت حركة غير عادية . قام متكاسلا يتكىء على عصاه ، ونظر من شراعة الباب الزجاجية . كان يقف خلف قضبان من الحديد .. أوحى له منظر القضبان بالسجن . هل السجن داخل البيت أم خارجه .؟! السجن — اليوم — فى كل مكان .. كل مكان أصبح سجنًا بغير قُضبان . بل قد تكون أنت نفسك السجن والسجان ، حين تعيش أسيرًا لما قد تظن أنه حق وصوابٌ فى عصرٍ ، لا يعرفُ الحقَّ والصواب . طرقٌ متواصل .. واقتحامٌ للشقة المجاورة من بعض جنود وضابط شرطة والبواب . ظل يرقب من موقعه خلف القضبان . أصوات .. صياح .. شبان .. فتيات . لا يدرى إنْ كانوا طلبة أو موظفين — عربا أو مصريين — ضائعين أو مُضيَّعين ؟ كل هذا لا يعرف عنه شيئا . لكن الحقيقة التى تبدو مؤكدة أن هذه الشلة تُمارس أنواعًا من الانحراف — فى وضح النهار — عينى عينك . صحيح الذين استحَوْا ماتوا . ولكن أليس وراءَ كل فئة منحرفة عصابةٌ .. تدبِّرُ لهم أمر المخدرات والمشروباتِ والفتيات والشقق المفروشة . إن السماء لا تمطر شرا أو فسادا .. لكنها الأرض الملعونة . أحس مطرقة من حديد ملتهب ، تهوى بعنف على رأسه الأصلع ، حين أدرك أن جدارا واحدا ، يفصل بينه وبين الوكر المشبوه . أفزعه أكثر مصير أولئك الفتيات

بعد أن يُفتح لكل منهن ملفٌ فى الآداب ، ومستقبل كل شاب بعد أن يُسجل اسمُه فى قائمة أصحاب الجُنح والسوابق . خرجوا فى مشهد درامى ساخر ، بينما سعيد يُغلق باب الشقة ، وجندى يضع الشمع الأحمر على القفل . تبخَّر الكابوس المرعب ، ولم يبق فى الذاكرة سوى شبح سعيد بقامته الفارعة وقفاه العريض وشاربه المتهدل — دون أن يبدو عليه أىُّ انفعال . لا يستطيع أن يتبيَّن على وجه التحديد طبيعة الدور ، الذى يُمكن أن يلعبه أمثال ذلك الذئب الغشيم . خفق قلبه .تذكر أبناءه .. منير ومرفت ومجدى ، فهو يعتقد أن كل شاب فى مصر يُمكن أن يكون ولده وفلذة كبده . أيتها البلاد .. أيها الأولاد .. ما .. ماذا جرى ؟! عاد إلى مقعده فى الصالة . الهم والغم يذبحان قلبه ، ويجرحان مشاعره . مد بصره فى أسى إلى مكتبة ، تحيط بجدران الصالة . رفض كل فرد من أبنائه أن يأخذ منها أى كتاب .. حتى الكتب الدراسية تركوها . لا يستطيع أن ينسى ما قاله مجدى ذات مرة : بيوتُنا ضيقة يا بابا .. إذا كانت الكتب تضايقك فأعطها لبائع الروبابيكيا . أمر عجيب أن يرفض أبناءُ المعلم مواصلةَ التعليم . آه .. لو .. لو يدركون أن الواحد منهم إذا أنفق نصفَ ما يضيعه فى مشاهدة الكورة والتليفزيون والفيديُو — فى القراءة ، فسوف يُصبحُ إنسانا بحق . القراءة — وحدها — مصدر المعرفة ومفتاح الوعى . التليفزيون نوع من أنواع المخدرات الجديدة . فكرة غريبة .. لكنها

حقيقة مرة . الحقيقة — أحيانا — أغربُ من الخيال . دق جرس التليفون . ما حدث له اليوم جعله لا يشعر برغبة فى أن يكلم أحدا . تثاقلت عليه حدة المرض . لم يعد يدرى ما الذى يؤلمه على وجه التحديد . منذ أيام لم يكن يشعر بما يُحسّه الآن . اليوم سخر منه التاريخ وهزمه الزمان . دار رأسه حين تجسد سعيد أمامه عملاقا، كأنه فارس الزمان الردئ . هل ما يراه حقيقة أو وهما .. هل هو عبقرى .. أو مجنون . ؟! عبقرى لا .. لا ، ليس هـذا عصر العباقرة . الناس يمكن أن تغفر للإنسان أى شىء إلا أن يكون عبقريا . وهم .. أم جنون .. ما يعانيه الآن .؟! اهتزت فى مخيلته كل الحقائق إلا حقيقة واحدة .. الموت .. الموت .. ألا موت يُباع ؟! أخذ ينقل بصره فى حيرة بين أركان الصالة . حالة من الفوضى تُسيطر على المكان . على مائدة الطعام — منذ أمس — أطباق مستعملـة ، أكـواب شاى ولبـن ومـاء ، زجاجـة مـاء فارغـة ، علبـة دواء الروماتيزم ، مصحف ، جريدة . الكراسى مبعثرة . السجادة متربة وملتوية . دهان الحائط الأبيض تحول إلى لون أصفر كالح . المنظر الطبيعى ، الذى اشتراه لزوجته المرحومة — فى ذكرى عيد الزواج الأول — بهتتْ ملامحه ، وتشقق إطاره ، وانقطع الحبل الذى كان يعلق به ، فوقع على الأرض ، وبقيت أطلاله فى الركن مهملة .. ذكرى لتاريخ قديم . نقل بصره إلى مائدة صغيرة مجاورة ، فرأى

جرائد اليوم . المساء بدأ يزحف ، وهو لم يقرأ صحف الصباح . كيف يلوم أولاده على عدم القراءة ، وهو لم يقرأ شيئا اليوم سوى خطاب إدارة المعاشات . تناول جرعةَ ماء من زجاجة بجوار الكرسى ، الذى يجلس عليه . ثبَّتَ النظارة . مد يده فى تكاسل . عادته فى القراءة — بعد أن ضعُفَ بصره — مطالعةُ العناوين ، وما يثير فضوله ، يقرأ الموضوع الخاص به : الآثار المصرية فى خطر بسبب الإهمال والسرقة — رئيس الوزراء يدافع عن وزير سابق متهم باستغلال النفوذ وتبديد المال العام — توقع ارتفاع الأسعار فى الميزانية الجديدة — تجار متعلمون يبيعون المخدرات فى أماكن العمل — عروض متنوعة للسيرك القومى فى كافة المحافظات — التفكير فى بيع مزيد من شركات القطاع العام بأبخس الأسعار — الموقف المالى لشركات توظيف الأموال مازال غامضا — اغتصاب فتاة فى ميدان العتبة الخضراء — نواب مجلس الشورى يطالبون بتخفيض الإنفاق الحكومى — انتحار مريضة فى مستشفى حكومى ليأسها من الشفاء — مسرحية « حمْرى جمْرى » ما زالت تُواصل عروضها الناجحة — حِلف الأطلنطى يبحث مستقبل أوربا بعد انهيار الاتحاد السوفيتى — بُوش يصرح : لسْنا مستعدين للتنازل عن زعامة العالم — الأسد يبدأ فترة رئاسة رابعة فى حكم سوريا — النظام العراقى يُهدد بضرب الأكراد والشيعة — إسرائيل مازالتْ على

موقفها المتعنت فى مفاوضات السلام — هجرة الكفاءات العربية إلى البلدان الصناعية تهدد بأزمة اقتصادية لشعوبها — تجديد شكل فوازير رمضان فى العام القادم — طقس متقلب مع توقع رياح متربة .. قذف الصحف — بقوة — مرة واحدة بكلتا يديه ، فتناثرت — دون تنسيق — فى كل الاتجاهات . كان يأمل أن تُنسيه القراءة بعض ماهو فيه ، فإذا بها تُعيده — بقوة — إلى كل ما حاول الهروب منه . الدنيا غابة .. يحكمها الأسد والثعلب ، ولا مكان للحمل أو الأرنب . تكون آكلاً .. أو مأكولاً ، هذه هى القضية . صدقتَ يا رسول الله .. صدقت يا خاتم الأنبياء .. أن تلد الأَمَةُ ربتها ، وترى الحفاةَ العُراةَ رعاةَ الشاة يتطاوَلون فى البنيان ، ويُرفع العِلم ويظهر الجهل ، ويسود كل قبيلة منافقوها ، ويلى الأمر غيرُ أهله ، فانتظر الساعة . زحف الظلام وبدأ يغتال النور . احتوته حالة من الأسى والألم . أحس أنه غير قادر .. أو راغب فى أن يحرك مفتاح الضوء . سرت نحوه نسمات باردة ، لا يعرف لها مصدرا . أحس أنه مشرف على النهاية . إنها لحظة تجعل المرءَ يرى الأمور دونَ تضخيم أو انكماش . ما فائدة الحياة والابنُ يهرب من أبيه ، والأخُ يفترسُ أخاه . ما فائدة الحياة حين يتفرق الأهل ، ويتخاصم الأحباب ، ويهاجر عنك الأنصار . الإنسان يظل طوال عمره يبحث عن الحكمة ، وحين يدركها يموت ، كما تموت حشرة حقيرة !! اهتزت

فى أعماقه الحدود الفاصلة بين الضوء والظلام .. العقل والجنون .. الحياة والموت .. الحقيقة والوهم . لم يعد شىء لديه مؤكدا سوى أن سعيد البواب هو السيد الوحيد فى البيت .. والشقة المفروشة .. والسوبر ماركت . تمدد على كنبة الأنتريه فى الظلام . لم تعد العينُ قادرةً على الرؤية ، لم يعد العقل قادرا على التفكير . ظل فترة غائبا عن الوعى . بكت — بغير دموع — عيناه على حاله . تذكر كل الموتى .. والأحياء ، لكنه لم يبال . عندما تذكر ميرفت اضطرب القلبُ الجريح فى صدره . لم يدر هل نام .. أم غاب عن الوعى ؟ أفاق بعد فترة لم يدرك مداها . طرق خفيف على الباب .. لم يهتم يبدو أنه زائر ،ضل معرفة العنوان . بعد لحظة سمع صوت مفتاح يُوضع فى الباب . لابد أنه واحد من الأبناء جاء يطلبُ سلفة أو يريد مساعدةً . عشيتْ عيناه من الضوء حين أنارتْ مرفت الصالة . لم يستطع أن يستوعب المفاجأة . كما لم يقدر على النهوض ، حتى يضمها إليه كعادته . ذُعرتْ حين رأته مسترخيًا على الكنبة . الإحساس الصادق لا يكذب صاحَبه . شىء ما دفعها للحضور . تركت الزوج والأولاد ، وجاءت وحدها . أصرت على الحضور .. وهاهى ترى بعينيْها حقيقة ما قاله قلبها . ازدادتْ قلقا وخوفا ، عندما وجدت جسده باردا وأطرافه مرتعشة . حين وسعه صدرُ مرفت بعد أن

ضاقت به الدنيا ، أحس أنْ ليستْ لديه رغبةٌ فى شىء ما . أخذَتْ تُحركه وتضمه فى حنان ولهفة . حمدت الله فى سرها عندما شعرت بأنفاسه البطيئة ونبضات قلبه الضعيفة . نظرت إليه باكية :

بابا حبيبى .. هل أنت بخير .. ؟!(١)

(١) السبت : غرة شوال ١٤١٢ = فى ١٩ / ٨ / ١٩٩٢
نُشرتْ فى جريدة « المساء » ، القاهرة .

أَلِفٌ .. بَاءٌ

دخلت المدرسة أول مرة فرحة نشطة . وجدت نفسها فى مكان واسع كبير — ليس مثل دارهم الضيقة . أخذت تجرى — بحرية وانطلاق — وهى تصعد السلم مع بقية الأطفال ناحية فصل « أولى — أول » المدرسة حاجة كبيرة خالص .. وحلوة خالص . « يا مدارسْ يا مدارسْ .. ياما اكلنا ملبِّسْ خالص » دخلت المعلمة وأغلقت الباب . وقفت بجوار تربيزة مكسُورة الأرجل . تُوجد خلف المعلمة مساحة سوداء كبيرة معلقة وسط الحائط ، اسمها « السبورة » . بدأت المعلمة تتكلم كلاما ، لم تعرف له معنى واضحا . أخذت تتحدث عن التعليم .. واللغة .. والحروف . هناك أمر يشغلها ، هو أن المعلمة تبدو أصغر من أمها وأجمل : شعرها مسترسل جميل ، وجهها أبيض رائق ، عيونها هادئة ، قدها أقرب إلى الامتلاء ، ليس جافاً مثل جسد أمها ، تلبس فستانا مثل خُضرة الفجل الورور . تعجبت لماذا ليست أمها عطيات فى حلاوة أبلة أحلام ؟! تأملت المعلمة تلاميذها الصغار ، وتوقفت نظراتها عند نادية . هذه الطفلة الوديعة عمرها ست سنوات ، لكن ملامحها تشع طهارة وبراءة . تعرف جيدا — لأنها من القرية ذاتها — أنها ابنة

الرجل الفقير ـ على عليوة ـ العامل الزراعى ، لكن وجهها فيه شيء ، يجذبك إليه ، ويحببك فيه . سوف تعرف فى المستقبل كل شيء عن الطفلة الوديعة وعن كل أطفال الفصل الخمسة والأربعين . أفاقت نادية على صوت المعلمة بعد أن كتبت بعض الحروف بالطباشير الأبيض على السبورة السوداء : أول درس ، وأهم درس يا أطفال ، هو أن نعرف كتابة الحروف ومعناها ، فمن يعرف الأبجدية .. يعرف كل شيء .. وأى شيء . لم تكن نادية قادرة على متابعة أفكار أبلة أحلام ، لأنها كانت سعيدة بالتجربة الجديدة . أول مرة تأتى إلى المدرسة .. وترى الأبلة .. وأول يوم لا تذهب فيه مع أمها ، لشراء الخضروات وغسلها فى الترعة وبيعها أمام الدار . كانت حزينة من أجل أبيها ، الذى يعمل طوال النهار ، ولا يعود إلا فى الليل . ومن أجل أمها ، التى تبيع الفجل والجرجير والكرات والبصل ، ولا تقدر على بيع الفاكهة مثل البلح والتين والجوافة والبرتقال ، أو على الأقل تبيع أصنافا أفضل من الخضر ، مثل الطماطم والخيار والبطاطس والكرنب.أعادتها إلى الفصل كلمات المعلمة ، وهى تشير بمسطرة طويلة ناحية السبورة : ألفٌ .. باءٌ .. تاءٌ .. ثاءٌ . الأطفال يرددون خلفها فرحين : ألفٌ .. باءٌ .. تاءٌ .. ثاءٌ .. لم تكن تعرف معنى هذه الحروف ، لكنها شعرت بلذة ، وهى تردد الحروف مع زميلاتها . قبل أن تذهب نادية إلى المدرسة خرج

أبوها مع الفجر ، والدنيا مازالت مظلمة . الشغل صار قليلا فى القرية ، والرزق أصبح شحيحاً . ضاقت البلدة بمن حملت . نصحه أحد عمال الترحيلة بأن يذهب مثله إلى البندر ، ويجلس أمام باب العفش عند محطة القطار . هناك يتجمَّع الشغِّيلة من بلاد بعيدة ، يعملون فى البناء .. أو تحميل العربات ، أو تفريغ ما بها فى مخازن التجار .. أو تنظيف بعض المبانى الحكومية .. أو قصور الأغنياء .. أو رصف الطرق . أكل العيش — يا ولد يا على — يحب الخفية ، وربنا يقول : اسعَ يا عبد ، وأنا أسعى معك . اكتشف — بعد التجربة — أن العمل فى البندر أكثر والرزق أوسع ، وأن أهل البندر فيهم خير كثير . صحيح .. خيرُ الناس فى المدن ، وشرهم فى القرى . عندما يكون هائماً فى الطريق يجد من يعطيه شيئاً لله .. خمسة قروش أو عشرة ، وأحيانا ربع جنيه ، بل ذات مرة أعطته سيدة كريمة جنيهاً كاملا . فى بعض الأوقات يسمع أن بعض المحسنين يعملون « عقيقة » .. أو ليلة لأهل الله — خاصة فى شهر رمضان . حين يأكل الطعام الذى رزقه الله .. ، فإنه لا ينسى أسرته ، لذلك يجلس القرفصاء ، ويضع منديله المحلاوى فى حجره ، فيأكل لقمة ، ويضع أخرى فى المنديل ، إلى أن يزدحم الجوف الجائع ، ويمتلىء المنديل الفارغ . بعد ذلك يخرج شاكراً ربه ، ماسحاً شاربه بالدهن المتعلق فى يده اليمنى . فى اللحظة التى كانت

تردد فيها نادية ابنته الكبرى — العزيزة جداً عليه — وراء المعلمة : ألف .. باء .. تاء .. ثاء ، جلس على عليوة قلقاً على رصيف المحطة فى انتظار أى عمل . لكن العمل كان عزيزاً فى هذا اليوم . فى أول النهار جاء مقاول ، وصاح فيهم ، وهو قاعد فى مقدمة عربة نصف نقل : توجد طبلية خرسانة فى عمارة بجوار المدرسة الصناعية . مطلوب عشرة عمال .. مفهوم عشرة فقط . العربة معطلة اليوم . من يقدر على المشى إلى هناك ، فليحضرْ عند المعلم توكل . أحس أن عظامه مفككة ، فهو يعمل كل يوم ، وقد حضر فجر اليوم محملا على عربة كارو ، جاءت إلى المدينة لتنقل بضاعة لأحد التجار . لم يجد نفسه قادراً على المشى من المحطة إلى المدرسة ، أى من أول البلد إلى آخرها . لكى يقتل حدة الانتظار ، أخرج رغيفاً من الخبز المتنوع الأشكال ، الذى تبيع به زوجته الخضار ، وحزمة فجل من الذى تنادى عليه عطيات بصوت مشروخ « لوبية يا فجل لوبية ».تذكر أسرته ، التى تغرب من أجلها . أعز الأبناء لديه هى نادية ، التى يشعر نحوها بحب شديد . هذه الفتاة فيها شَبَهٌ كبير من أمه — رحمها الله . يغضب كثيراً من زوجته ، إذا رآها تضربها أو تكلفها مالا تطيق . مرت ساعة .. ساعتان .. أكثر .. أقل .. لا يدرى . لكن الذى بدأ يدركه — بشكل مؤكد — أنه لن يحصل اليوم على شغل . أحس أنه ضائع فى ميدان المحطة . كل الناس تذهب وتجىء ..

وهو قاعد على الرصيف . أخذ ينقل بصره المحيَّر بين الداخلين إلى المحطة والخارجين ، وبين الراكبين فى الشارع والمشاة ، وبين البيوت والمحلات . الميدان سوق .. أو مولد . تذكَّر الموالد ، وليالى الموالد .. الفول النابت .. واللحمة الـهُبَر .. والصدقات بغير حساب .. والصوان الكبير يمتلىء بالذاكرين .. الله حى .. الله حى . حركة الذاكرين الواصلين ، مثل موج البحر ، تذهب يميناً وتجىء يساراً . الكل مشغول بحب الله .. وأهل الله .. ورسول الله .. وصوت المنشد يرتل فى خشوع :

يا أهل بيت النبى ، دا انا خدَّام فى وَادِيكُمْ
طمعان فى نظرة رِضا ، ليَّا العشَمْ فيكم
أنتُمْ رجال الحِمى ، طَالتْ أياديكم
تاخدُمْ بإيد العَيَّان ، اللِّى احْتمىَ فِيكم

أيقظه من شطحاته عامل فقير مثله أخبره بفكرة ، لم تخطر له من قبل . إذا كان لابد أن تحصل على فلوس اليوم فتعال معى إلى مستشفى الأمل . ماذا نفعل ؟ هات وخذ . لا أفهم.هات دماً وخذ فلوساً . مشى بجوار زميله يجر أعضاءه المجهدة ، حتى وصلا إلى مستشفى ضخمة أشبه بلوكاندة عظيمة ، ترقد على شط النيل مباشرة . اعترضهما بعض رجال الأمن ـــ الذين يلبسون ملابس زرقاء وسوداء . صعلوك .. لا تدخل من باب الملوك . كل معلوماته عن

المستشفيات مستمدة من الوحدة الصحية فى القرية .. والمستشفى العام فى المدينة . يستحيل أن تكون تلك البناية العظيمة مستشفى مثل الأماكن التى زارها ، وأخذ منها : شراب الحديد أو شربة الدود ، أو حبوب السلفا .. له أو لزوجته أو أحد أبنائه . ظن فى البداية أن الحكومة أرادت أن تصلح الخدمات الطبية للناس — أبناء الشعب الغلابة . لكن الزميل صاح فيه : فق .. واصح يا بلدينا ، هذه المستشفى لا علاقة لها بالحكومة أو الشعب . مشروع استثمارى يا غشيم . لم يحاول أن يفهم .. أو يتكلم ، فهو لا يعرف شيئا عن الحكومة أو الشعب . كل ما يهمه أن يحصل على فلوس ، حتى يطعم الأفواه الجائعة التى تنتظر عودته ، كما تنتظر الأرض الشراقى مياه الساقية . أسلم ذراعه للتمرجى . أحس أن قلبه ينخلع مع لتر الدم ، الذى سحب من ذراعه . ضاع إحساسه بالفقد والضعف ، حين أعطوه زجاجة لبن وعشرين جنيها . ورقة العشرين جنيها .. ورقة جميلة خضراء ، كان يراها من بعيد فى يد المقاول . لكنه يمسك الآن بيده التى سحب منها الدم ، ورقة صحيحة بعشرين جنيهاً . كانت الورقة جديدة — أعطاها له الصراف من حزمة داخل أستك رقيق . أخذ يتأمل — بفرحة طفل — الورقة من الوجه .. ومن الظهر .. قربها من عينيه ، ومن أنفه ذى الفتحات الواسعة . رائحة جميلة وشعور غريب . الفلوس .. الفلوس المفتاح السحرى لكل شىء

يا أبو نادية . مال نحو ركن هادئ ، حتى لا يراه أحد.طبق الورقة مرتين ، ثم وضعها داخل البطاقة العائلية ، ثم لف البطاقة فى المنديل المحلاوى ، ووضع الثروة فى جيب الصديرى . توجد معه قروش قليلة تكفى لأجرة السفر . لن يفك الورقة المقدسة . سيعطيها صحيحة لعطيات ، حتى تشترى بعض ما يحتاجه البيت . امرأته حكيمة مدبرة ، سوف تشترى للعائلة يوم الخميس — يوم السوق — اثنين كيلو كرشة ، وتطبخ لهم ثريداً وشوربة . شوربة اللحم تصلح المعدة وتقوى العظام ، حتى يقضى ليلة سعيدة مع أم العيال . أكل اللحم يساعد على إصلاح ما فعله الفقرُ .. ! سوف يشترى علبة سجائر ماكينة ، فقد أفسد صدره دخان الجوزة . سيأخذ نفساً عميقاً من السيجارة ، ويحس نشوة الخرمان أسكره التبغ.حين يجلس على المصطبة بجوار زوجته ، لن يعطى جاره عبد السميع الشاذلى سيجارة ، بل حتى ولا عقب . رجل دون .. عمره ما عزم عليه بسيجارة ، ولا حتى نفس جوزة . شق طريقه بصعوبة داخل الأتوبيس المزدحم . عندما نزل أمام البلدة تحسس جيبه ، فلم يعثر على المنديل ، الذى وضع داخله البطاقة والعشرين جنيها . بدأ الأتوبيس يتحرك ، وهو يحاول اللحاق به . لكن الأتوبيس أسرع بعيداً ، مخلفاً وراءه سحابة دخان . لم يفقد الأمل . ظل يجرى .. ويجرى .. ويجرى إلى أن وقع مغشياً عليه . لا يدرى كيف وصل إلى

البيت .. ولا من حمله ولا كيف أفاق . فتح عينيه بصعوبة فرأى زوجته وأطفاله متناثرين على أرض القاعة ، التي يعيشون فيها . حين تحركت عيناه ، تمتمت زوجته فرحة : حمدا لله على سلامتك . لقد ظن بعض أهل القرية أنك مت . الأسطى فاروق المزين كشف عليك ، وأعطاك حقنة ، بعد أن قرب رائحة النشادر إلى أنفك . قال بعد أن بدأتَ تتحرك بصعوبة : عملت ما أقدر عليه ، والله هو الشافى . اخرجوا يا ناس يا طيبين ، ودعوه يسترح حتى الصباح . وهو خارج وضع فى يده — دون أن يلمح أحد — الشيخ عمران إمامُ المسجد جنيها ثمن الحقنة . أخذ يتأمل الزنزانة ، التى يسجن نفسه فيها كل ليلة . السجن الحقيقى .. هو الفقر . لو كان أثر الفقر سيعود عليه وحده لتحمل ، لكن ما ذنب هؤلاء الأبرياء الجوعى .. !! عاودته آلام الذراع اليمنى .. وأحس جيشاً من النمل ، ينهش العرق الذى سحبوا منه الدم . كان مكسور الخاطر مجروح القلب . آخر شىء كان يمكن أن يفعله ، هو أن يبيع دمه لمن يستحق .. أو لا يستحق .. بثمن بخس . يبدو أن الله لم يسامحه على ما فرط فى حق نفسه ، وفى حق أولاده ، لذلك أرسل إليه من سرق الفلوس من جيبه . يا ألله .. يا رب الفقراء .. هل تسمعنى ؟! حاول أن ينام .. حاول .. حاول ، لكنه لم يستطع . على ضوء لمبة جاز صغيرة ، جلس نصف قاعد .. أوْ نصف نائم .. على الحصيرة ،

وزوجته قاعدة فى الركن ، تعد حزم الفجل والجرجير والكرات التى لم تبع ، لأنها انشغلت بهمّ زوجها ، حين جاءوا به مغمى عليه . كما أن نادية التى تساعدها ، لم تستطع أن تفعل ذلك ، لأن قلبها كان خائفاً .. ودموعها لم تتوقف ، إلا بعد أن أفاق أبوها . لا تدرى عطيات الحزينة ماذا تفعل بالخضار البائت . سوف يذبل وتصفر أوراقه فى الصباح . لن تكون له فائدة ، حتى لو حاولت أن تعيد إليه الروح بأن تبله فى ماء الترعة . الحل الذى استراحت إليه هو أن تعلف به الفراخ والأرانب التى تربيها ، فهى تربى الفراخ وتبيع البيض والفراخ ، وتسمن الأرانب ولا تأكل لحمها .. كل هذا من أجل العيال .. العمل خير من الشحاذة . لم تكن حياة الزوجة أفضل من حياة زوجها ، فهى تجاهد مثله من أجل العيال الخمسة . لو كانت نادية ولداً ما أرسلته إلى المدرسة . صحيح .. الولد وّتد .. مع أبيه حتى يساعده ويتعلم منه ، ويريحه عندما يكبر . نادية عادت من المدرسة تردد كلاما ، لا أفهمه : ألف .. باء .. تاء .. ثاء . صرخت فيها بأعلى صوتى : اسكتى يا بنت . أقول لك ما أخذناه مع أبلة أحلام . قلت لك اخرسى ، واجلسى هنا أمام المشنة ، حتى أغسل جلباب أبيك . إياك أن تلعبى مع الأطفال !! تبادل الزوجان — فى الضوء الشاحب والليل البارد — نظرات حزن وغيظ مكتوم ، من أجل العشرين جنيها التى ضاعت . الزوجة

غاضبة على زوجها ، لأنه حاول أن يقلد الأفندية ، ويركب الأتوبيس . لماذا لم يأت ماشياً أو راكباً عربة كارو — كما يفعل كثيراً عند العودة من البندر ؟ مقدر ومكتوب .. الغلبان لا يشبع من الغلب . يا وكستك يا عطيات . أما الزوج فقد كان ساخطاً على الدنيا وما فيها . لعن اليوم الذى عرف فيه طريق المدينة التى استولى بعض أهلها على دمه ونقوده فى وقت واحد . المدينة غول مفترس .. لكن هل يقدر على ألا يسافر إليها مرة أخرى ؟! لم تستطع نادية أن تنام هى الأخرى ، فقد أحست أن هذه الليلة ، ليست عادية فى حياة والديها . لم تكن تدرك على وجه اليقين .. ماذا حدث .. ولا معنى ما حدث ، لكنها أحست — بالفطرة — أن هناك مصيبة حدثت لأبيها فى البندر ، وأنه مريض تعبان ، فقد جاء به الرجال محمولا ، لا يقدر أن يتحرك أو يتكلم المصائب التى حلت بأبيها — الذى تحبه ويحبها — جعلتها حزينة تبكى — بغير دموع . قتلت فى عقلها الصغير فرحتها بالمدرسة . أنستها ما تعلمت من الحروف مثل : ألف .. باء .. لم تعد قادرة على تذكر بقية ما حفظت . شرخ جدار الصمت الليلى .. الحزين .. البارد ، صوت ضعيف من الأب ، يطلب من الزوجة أن تعد كوباً من الشاى . تركت الخضروات ، التى ترتب وضعها فى المشنة ، والتفتت إليه . لم تكن واثقة أن لوازم الشاى موجودة عندهم : شاى .. شاى إيه يا رجل ؟

نحن بعد العشاء بزمن ، يمكن فى نصف الليل . لن يجعلك الشاى
تنام ، استرح الآن والصباح رباح.قلت لك اعملى الزفت وخلاص .
لم تشأ أن تُغضبَ زوجها ، كما لم تستطع أن تخبره الحقيقة . حاولت
أن تقوم بصعوبة . أسندت يديها على الأرض ، حتى تستطيع أن
تتحرك بعد يوم حزين طويل ، لا يريد أن ينتهى . أخذت تبحث فى
الركن الذى تضع فيه الحلل والأطباق ، حتى وجدت وابور الجاز .
حركته بيدها اليسرى بجوار أذنيها ، فأدركت أن الجاز فيه قليل .
ملأت كوزاً من الصفيح بالماء ، ثم وضعت نصف الماء فى الوابور .
تعرف — بالخبرة — أن الماء أثقل من الجاز ، لذلك سوف يعلو الجاز
على سطح الماء ، ويكفى لعمل الشاى . بعد مدة استطاعت أن
تشعل الوابور ، ووضعت الكوز الأسود على لهب الوابور الأصفر ،
الممتزج ببعض دخان . لمحت فأراً يتحرك عند باب القاعة ، لم تكن
قادرة على مطاردته . خشيت — إن هى صرخت أن توقظ الأطفال
الصغار ، فيقتل الخوف لديهم الرغبة فى النوم . وضعت ملعقةً من
الشاى فى الماء ، وتركته يغلى ، حتى يكون الشاى ثقيلا . بدأت
رائحة الشاى تصل إلى منخار زوجها ، تمنى أن تكون مع الشاى
سيجارة ، تُصلح مزاجه المنحرف . بطرف الجلباب
الأسود ، حملت الكوز الساخن بحذر ، ووضعته على
الأرض . أحضرت الكوب وملعقة صغيرة من الألمونيوم . تظاهرت

بأنها تبحث عن علبة السكر . الشاى يا امرأة .. ساعة حتى تعملى كوباً من الزفت،صرت عجوزة .. لم تعد لك فائدة فى الليل أو النهار . اصبر يا ابو نادية ، الصبر طيب . تذكرت نادية .. حاولت أن تشركها فى الأمر ، حتى تخفف من وقع الخبر على الزوج : نادية .. نادية .. أينَ وضعت علبة السكر يا شقية ؟ لم تكن نادية قد نامت ، لذلك هبت واقفة حين سمعت صوت أمها . كانت قلقة لا تستطيع أن تنسى ما حدث فى المدرسة .. وما وقع للأب . عاش قلبها الصغير مشاعر الفرحة والأحزان فى يوم واحد .. يوم أسود طويل ، لا يريد أن ينتهى . كانت معجبة بأبلة أحلام ، وتمنت أن تكون مثلها فى كل شيء ، حتى فى الفستان الأخضر وتسريحة الشعر . سألتهم المعلمة بعد أن قرأت معهم الحروف أكثر من مرة : أول حرفين فى الأبجدية هما ألف باء .. هل تعرفون السبب يا أطفال ؟ أخذ الأطفال يفكرون والمعلمة تنظر إليهم . لكن الأطفال لم يقولوا شيئا ، ولم تقل لهم شيئا .. وظلت نادية متعطشة لتعرف إجابة السؤال . حين رأت الأم نادية واقفة ، طلبت منها أن تحضر علبة السكر ، وهى تعلم سلفاً أن ليست فيها حبة واحدة . توجهت الطفلة نحو دولاب فى الحائط ، وأحضرت منه العلبة ، وظلت واقفة بالقرب منها ، حتى تكون قريبة من مصدر التدفئة . فتحت الأم العلبة فى هدوء ، وأخذت تحرك فيها الملعقة . آه .. العلبة ليس فيها سكر . فرد الزوج مغتاظاً : أيـن

السكر يا امرأة ؟ سكر إيه يا رجل ؟ اثنين كيلو ، ماذا تصنع لعائلة ، فيها رجل كييف وطفل رضيع .. وأبناء لا يعرفون طعم الحلوى إلا إذا تناولوا ملعقة سكر ؟ أنت امرأة مهملة ، لا تعملين حساباً للرجل الذى يتغرب فى بلاد الله من أجلك ومن أجل أبنائك .. خشيت الطفلة أن تنشأ معركة بين الأبوين ، وقد شهدت كثيراً من معاركهما.قالت حتى تحل الأزمة : كانت فى العلبة معلقة سكر ، لكنى أكلتها يا أبى . لم يستطع الأب أن يحبس غيظه : ومن نحن حتى تأكلى السكر يا بنت الكلب ؟! أخذ يسب البنت .. ويسب أمها .. ويلعن يوماً أسود ، لا يريد أن ينتهى . صاحت امرأته : ماذا نفعل ؟ .. نحن عائلة فقيرة .. أنت وحدك المسئول عنا . استيقظت فى داخله شياطين الغيظ والغضب . أخذ يسب كل ما يتذكره .. ومن يعرفه . قالت له نادية بصوت باك : اهدأ يا أبى .. لا تزعل . نسى كل الوساوس التى تشتعل فى صدره ، والتفت إلى نادية : أنت السبب .. لماذا أكلت السكر ؟ توقف الزمن .. وتبادل الثلاثة نظرات قلق وغيظ وغضب . لا يدرى الأب كيف تحرك من مرقده ، وحمل — بيده التى سحبوا منها الدم — وابور الجاز المشتعل . قذف به ناحية الطفلة الخائفة . وقع الوابور عند ذيل جلبابها ، فانتقلت النار من الوابور إلى الجلباب . صرخت نادية ، وذهل الأب ..!! أخذت النار تسرى فى بقية الجلباب . الأم

تصرخ ، والطفلة تعوى ، والأب مذهول ، لا يستطيع أن يتحرك .
اشتدّ صراخ الطفلة ، حين انتقلت النار من الثوب إلى الجسد .
نادية تجرى .. تبكى .. تصرخ .. تستغيث .. استيقظ إخوتها
الصغار . ظل الأب مذهولا غير قادر على الحركة ، بينما المحترفة تجرى
هنا .. وهناك .. النار مشتعلة فى الثوب والجسد .. ثم بدأت تمتد
إلى الشعر .. والوجه .. وهى تصرخ وتصيح .. تصرخ وتصيح ..
فتحت الأم باب القاعة وأخذت تستغيث بصوت عال : الحقونا يا
عباد الله .. الحقونا يا عباد الله .. الحقونا .. يا...!![١]

---

(١) الأثنين ٥ / ١٠ / ١٩٩٢ .

دراسات نقدية للمؤلف

١ ــ دراسات فى نقد الرواية

المعارف ١٩٨٩ ــ ١٩٩٣

٢ ــ ديوان رفاعة الطهطاوى

الهيئة ١٩٧٩ ــ ١٩٨٤ ــ ١٩٩٣

٣ ــ شوقى ضيف ــ سيرة وتحية

المعارف ١٩٩٢

٤ ــ الشعر والشعراء المجهولون

المعارف ١٨٨٦ ــ ١٩٩٢

٥ ــ جماليات القصيدة المعاصرة

المعارف ١٩٨٢ ــ ١٩٨٩

٦ ــ شعر ناجى ــ الموقف والأداة

المعارف ١٩٧٦ــ ١٨٨١ــ ١٩٩٠

٧ ــ شعر شوقى الغنائى والمسرحى

المعارف ١٩٧٣ــ ١٩٨١ــ ١٩٨٤

٨ ــ صورة المرأة فى الرواية المعاصرة

المعارف ١٩٧٣ــ١٩٨١ــ ١٩٨٥

٩ ــ الرواية السياسية

(تحت الطبع)

كتب أدبية للمؤلف

١ ــ عمار يا مصر	مجموعة	١٩٨٠ ــ ١٩٩١
٢ ــ الدموع لا تمسح الأحزان	مجموعة	١٩٨٢ ــ ١٩٩١
٣ ــ الأفق البعيد	رواية	١٩٨٤ ــ ١٩٩١
٤ ــ حكايةُ الليل والطريق	مجموعة	١٩٨٥ ــ ١٩٩١ ــ ١٩٩٢
٥ ــ الممكن والمستحيل	رواية	١٩٨٧ ــ ١٩٩٢
٦ ــ دائرة اللهب	مجموعة	١٩٩٠ ــ ١٩٩١
٧ ــ الليالى	سيرة ذاتية	١٩٩٠ ــ ١٩٩٢
٨ ــ العشق .. والعطش	مجموعة	١٩٩٣
٩ ــ الكهف السحرى	رواية	تحت الطبع

فهرس المجموعة القصصية

العشق .. و .. العطش

رقم الإيداع : ١٩٩٣/٢٢٦٦
الترقيم الدولى : 8 - 0779 - 11 - 977